مَلْحُ الأَرْضِ العَطِبَةِ

ملح الأرض العطبة: رواية
الكاتب: كامل عبدالجواد أحمد
تدقيق لغوي وإخراج فني: الباشا عبدالباسط
رقم الإيداع: 11888 / 2019
الترقيم الدولي: 3 - 039 - 844 - 977 - 978

دار الزيات للنشر والتوزيع :**Facebook Page**
E- mail: bentelzayat1@gmail.com
Website: www.bentelzayat.tk

مجلس الإدارة / د. شاهندة الزيات
المدير العام/ أ. محمود محروس إبراهيم
01066736765 - 01011122429

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار الزيات المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / 49351

مَنْحُ الأَرْضِ العَطِبَةِ

الكاتِبُ

كامِل عَبْدُ الجَوَّادِ أَحْمَد

دار الريان للنشر والتوزيع
صدق حلمك يتحقق

عندما نترك أنفسنا لمهب المكان والزمان، عندما ننجرف وننحرف نحو المال والجاه، وننسى أننا بشر.

خلقنا لنكدح نعم؛ ولكن تنعمًا بالحياة، لا تعاسة فيها،

فتردنا الحياة على أعقابنا أمواتا.. جسدا بلا روح، خيالًا لذكرى إنسان.

وإيمانا منا أن النقود هي مصدر سعادتنا... نفقد سعادتنا في لحظة اللهث وراء الأموال..

كامل رزق

❄ ❄ ❄

(1)

عندما جرت السفينة في عباب البحر متجهة إلى تلك الجهة التي تقصدها دومًا، وهي تخترق المياه في صعود وهبوط يثير بعض المسافرين، في رؤية المياه التي تداعب الباخرة مبتعدة عن الميناء الذي بدأ يتلاشى شيئًا فشيئًا كان الازدحام يتزايد في إتجاه سطح السفينة قبالة هذا الصوت الذي يصيح: "لقد سقط الرجل من سطح الباخرة..."، كان المنظر مرعبًا؛ فالرجل يستغيث بنا ونحن نصيح بصوت عال: "الرجل سقط في الماء، أخبروا القبطان.."

توقفت الباخرة رويدًا رويدًا.. من على السطح أتابع ما يجري وبداخلي أسئلة تجتاحني، مَن هذا الرجل الذي سقط في الماء؟ وكيف سقط؟ جاءتني الإجابات سريعة من أفواه المتلهفين للحدث، لقد أصيب بدوار البحر فاصطدم بالحاجز الحديدي فهوى جسده فسقط في الماء لتتعالى الأصوات بالصراخ والنحيب والاستغاثة التي رجت الباخرة وليبعدني السيد عبد العال عن هذا الحاجز بعد خوف تملكه

وارتعاشة سرت به ليتصبب العرق على وجهه، أحاول أن أخفف من وطأة هذا الحدث عليه لأتركه في جلسته هذه عائدًا أدراجي في التفاتة سريعة لأتابع ما يجري، يقفز فرد أمن ومعه طوق النجاة، وبعد تعبٍ قد حل به يصل إليه بأنفاسٍ مجهدة، يتشبث بهذا الطوق المربوط بالحبل والممتد إلى الجهة الأخرى حيث يتجمع أفراد الباخرة ليسحبهم.. أخيرًا يضعه على أرضية الباخرة في آخر الممر، يأتي رجل ذو رأس ضخم يتحسس الطريق، يفسح الحشد له إلى أن يفضي للرجل الممدود فيتعثر به، يلاحقه بعض الأفراد قبل أن يقع، يحمد الله متسائلًا: أين المريض؟.

باغت الجمع المضطرب وهم يشيرون إلى وقع قدميه، نزل على مهل وهو يتحسسه، ينظر إلى بؤبؤ عينه يغرز نظراته فيه، يقلبه يمينًا ويسارًا متسائلًا: ماذا به؟!.

تعجب الكل مندفعين في كلمة واحدة: إنه غريق!.

فعدله على ظهره ليضغط بكلتا يديه على صدره فيقفز الماء من فمه فيطلب من فرد الأمن أن يعدله فيحمد بدوره ربه حتى لا يجزى بسببه أو يسجن، أما الدكتور فعاد أدراجه وهو يتثاءب، فهل هذا الصمت

المطبق والجاثم على صدره نتيجة أنه حبيس غرفته؟ أم إنه تعب من السفر؟.

أطل على هذا الفضاء الرحب مستنشقًا ذلك الهواء المنعش المعبأ بالملوحة، ورذاذ ذلك الماء الذي تناثر على وجوه الحالمين، ولكنه حلم يشوبه القلق والخوف من المستقبل. متطلعين إلى تلك الجنة الموجودة في الأفق والتي لا تظهر إلا لهم، فماء البحر يكسو الأعين التي لا نرى غيرها أمامنا، والتي تحيط بالباخرة من جميع الجهات، حيث لا توجد يابسة، نعم لا وجود لليابسة التي ننتظرها على أحر من الجمر، أحسست بأن أنفاسي تخرج ثقيلة من صدري وأنا أنظر للوراء، يا له من منظر!! القمر يكتحل ببعض الشفق الزائل ماضيًا بهدوء تام نحو لجة من الظلام الذي اجتاح المكان لينيره فتصبح السماء أكثر نضارة وابتهاجًا.

يصطف البعض فوق السطح ليراقبوا البحر وهو يرسل لنا قطراته ولتخرج الأسماك فرحة بنا وليفاجئنا الدلفين بقفزاته كأنه طفلٌ يداعب والده.

اقترب مني وهو المؤتمن لاصطحابي معه والسيجارة تتأرجح بين يده، يأخذ نفسًا عميقًا يطلقه في الهواء الطلق، يلقي بنظراته بعيدًا ثم يشيح برأسه وهو يسألني قائلًا: هل أحببت السفر؟

- نعم.

- بعدما شاهدت بأم عينيك ما حدث للرجل؟!

- هذا قدر الله يا سيد عبد العال وكلنا عرضة لمثل هذا الأمر.

- ولكن يبدو أنك في اشتياق للوصول.

اعتلت وجهي علامات الدهشة وأنا أسأله: هل يبدو عليَّ؟

أجابني وهو يضحك: نعم لأنك مسرور برحيلك هذا! ونحن يعتصرنا ألم الفراق، فأصعب شيء على الإنسان الوداع؛ فهو وداع لكل شيء، أطفالك، ذكرياتك التي تحملها بداخلك، حبك الذي يقبع داخل الأبنية ولكنه يعشش داخل صدرك، نودعهم بدموع ونتركهم والقلب قابع معهم ولكننا مجبرون على الرحيل من أجلهم، أرى أن الشك يراودك فإني ألمحه في عينيك، فإني أراك تتساءل، هل من أجلهم فقط؟ نعم، وإني أراها أكبر تضحية أن تحرم من كل هذا؟.

أشاح بوجهه ناحية ميناء سفاجا التي غادرته الباخرة وقد تحجرت في مقلتيه دمعتان حاول أن يخبئهما بأن أدار وجهه بسرعة ولكني لاحظتهما وفي صدري إشفاق عليه، لاحظ ذلك فاستأذن ماضيًا بخطى ثقيلة، وبداخلي سؤال: هل سأصبح مثله؟

كانت الباخرة تسير ببطء في بادئ الأمر، سرعان ما بدأت الأمواج تراقصها ليتراقص الجميع ولينـدمج الكل في رحلة تعارف لا تنتهي إلا بانتهاء الرحلة التي تتعرف فيها على وجوه وأسماء عديدة ولكن لا يتبقى في ذهنك غير أثر فيك ترك لك ذكرى حنين إلى هذا الشخص.

* * *

كانت الساعة لم تتجاوز الثانية عشرة مساء لتمضي الباخرة صاعدة هابطة وهي تخترق المياه حيث يداعبك نسيم الهواء المحمل بالأشواق لجهة قد ودعتها، وجهة تأمل أن تحقق فيها ما تريد وأن ترى أقاربك الذين أخذتهم الغربة في اضطراب الحياة الغير منتهٍ، دخان السجائر يرسم خيالات لمن ينظرون إلى السماء وبداخلهم أمانيات كثيرة، منهم من يعبر عنها مثل السيد عبد العال، ومنهم من يسرح ويغوص دومًا محاولًا أن يحقق أي شيء، تركت السطح وأنا أودع تلك العيون التي تبرق في حضن العتمة وهم متكورون في زوايا عدة على السطح، متلفحين بالأغطية حيث سياط البرد المتوالية تلسع أجسادهم، ورغم هذا يستمرون في أماكنهم وكأنهم جزء من السفينة، فالبعض منهم يعشق

العزلة، لا يصل إلى مسامعك سوى همس الأصوات واصطكاك الأسنان، أتركهم في هذا الانطواء مع ليلهم الذي أسدل ثوبه الأسود على مرمى البصر متجهًا إلى درج السلم، قاصدًا الكافتيريا بعد إحساس بوخزة في البطن (إنه نداء البطون التي من أجلها مشينا في مناكبها).

أخذت بعض البسكوت وقدحًا من الشاي، جلست أمام شاشة التلفاز أراقب هذا الجمع الذي التف حول الشاشة، بدا كما لو أن هذا الحشد أصبح واحدًا باختلاف أيديولوجيته.

يشاهدون بلهفة المنتصر، فقد كانت تعرض مبارة كرة قدم بين مصر والمغرب، الكل مشدود، تارة تراهم يوبخون الحكم وتارة أخرى فريق الخصم. وقتها تأكدت فعلًا أن ما حاول الأعداء أن يفعلوه بنا هو تقسيم تلك الأمة بلعبة، فنسينا عروبتنا، نسينا أن هناك أشياء كثيرة تجمعنا، وأننا لسنا دُمى، ولكن متى نفيق؟ بوادر اختناق تتملكني، تسيطر عليَّ، أحاول التخلص منها، أدرت رأسي أتفحص الباخرة التي تتكون من طابقين وتنتهي بالسطح وكل طابق به مكان فسيح تحتله المقاعد التي زخرت بالركاب وكل مجموعة أمامهم تلفاز والبعض يفضل الجلوس

بجانب كافيتريا الباخرة حتى يطلبوا ما يشاءون من شاي وبسكوت وأي مثلجات قد تحتاجها.

اقتربت من السيد عبد العال الذي بدا متأنقًا بثوبه الأبيض وكوفيته الحمراء لأهنئه بالفوز المزعوم وقد كاد يطير من الفرح لفوز المنتخب.

بادرته بالسؤال: متى نصل؟

رد عليَّ بتكاسل وهو يتثاءب: في الصباح إن شاء الله.

أكمل مستطردًا: حاول أن تغفو لأن غدًا يوم شاق.

تركني وغاص داخل ذلك الكرسي، يبدو عليه الاضطراب والوساوس تقلبه ذات اليمين و ذات الشمال، أما أنا فافترشت الأرض فقد غلبني النوم.

يدٌ تحركني، أتململ يمينًا ويسارًا فلم أكمل عدة دقائق، أخيرًا أفتح جفنيَّ لأجده يطلب مني أن أنهض فقد حل الصباح ولكن لم نصل للشاطئ الآخر بعد. أحسست بأن القلق يتملكه، قال لي: هيا بنا لكي نشرب الشاي على السطح. ما زال الكسل يتملكني، أترنح يمينًا ويسارًا وما زالت قابعًا مكاني، أسمع قهقته التي تدب أوصال النشاط في

جسدي، أخيرًا نهضت وأنا متلهف للمنظر وعندما صعدت رأيت البحر هائجًا وكأنه يودعنا بحزن، ثمة ضوء يخرج من بين جناحيه لا أعرف ما هو، قد تكون باخرة أخرى تقل مرتحلين أو قد تكون عروسًا خرجت بحليها فتسقطت أشعة الشمس عليها مما زاد من بريقها، أنفض هذه الأفكار لأشاهد تلك الأمواج المتلاطمة وكأنها تداعبنا تارة وتغضب علينا تارة أخرى وأنا أقبض على الحاجز الحديدي، يأتيني صوته لأعود من عالمي: ستتعود على رؤية البحر حتى تمل منه.

سرحت أتأمل تلك السعادة التي أراها في أوجه المسافرين لأول مرة، أراهم ينشدون الحياة وتداعبهم خيالات أحلامهم لتسمع بعضهم يتفوه قائلًا: أريد فقط أن أتزوج، وآخر يكمل مستطردًا: أتمنى أن يكون لي بيت.. ولتجده يتطلع إلى الأفق مختتمًا كلامه وهو يقول داعيًا: يا رب.. ولكن انتبه للسيد عبد العال فكلما يسمع جملة يقهقه، هل هي حنكة السنين التي ترتسم على وجهه؟ لا أعرف، تثقل رأسي، هل من تلك الأحلام؟ أم من ذلك البحر الذي فاجأني بهيجانه ودموعه التي تتقطر على ثيابنا، ما زلت ممسكًا بهذا الحاجز الحديدي، الفرحة تغمرني فأول

مرة يمتد بصري على ذلك البحر الذي يرسل نسائمه لنا، حاملًا معه رسائل الوداع والسلام لهؤلاء الذين ينعمون بجنتهم، ازداد تعلقي بها عندما رست السفينة في ميناء ضبا. سادت فترة صمت، أتحسس الرمال، أجدها رطبة ممزوجة ببرودة الليل، نزلنا ونحن نهرول حتى نلحق بالحافلات التي تنقلنا إلى صالة الركاب التي تترمى أمامنا، ندخل في بهو الصالة الفسيحة، أنظر إلى هذه الطوابير الطويلة التي تقف في انتظار وشغف لتبصم أولًا بصمة العين أمام هذا الحاسوب الذي يقف خلفه العسكري السعودي الذي يعاملنا بأدب جم وابتسامة، يخبرني السيد عبد العال بأنه سينتظرني بجانب الأتوبيسات يمضي ليختم جوازه، ولأن أقدامنا تطأ الأراضي السعودية للمرة الأولى فواجب أن يلتقط لنا لقطة لعدسة العين، لأنهم يعرفون جيدًا أن بصمة اليد يأكلها الشقاء فتختفي ملامح اليد ويصعب أخذ البصمة إذا احتاجوها، لذا كانت بصمة العين أفضل وسيلة للذين يدخلون أول مرة فيتنفسون نسائم هذه الأرض ويحفرون بأيديهم ملامح العمارة الحديثة التي أوجدت في بلاد

الحرمين فتستغرقهم الأيام في غياباتها، فإذا أخل أحدهم بالقانون فمن السهل التعرف عليه. خرجت من الصالة لأجد الأتوبيسات التي تقف في انتظار هؤلاء الذين تلقيهم البواخر على الشواطئ لتحملنا وأنا في غاية السعادة.

أعطيته الجواز فهو ينتظر تلك الجوازات ليكمل أتوبيسه بعدما يثبت هذه الأسماء في دفاتره، يحصي الأعداد، يرى الكراسي وقد زخرت بالراكبين، يستعد لنقلنا، قرأ دعاء السفر: اللهم هون علينا سفرنا هذا..

أنظر من خلف الزجاج لأشاهد تلك الأراضي المسطحة والممتدة والتي تعكس حرارة الشمس في لمعانها، فيبدو لك السراب كأنه بحيرة تفترش الصحراء، تغريك بمفاتنها، تريدك أن تتبع هذا الأثر الذي تراه قريبًا فهي تحاول جذبك بشتى الطرق حتى تغوص نحو المجهول ولذلك تشرئب الرءوس لتراقب بكثب تلك البيوت المتناثرة في الأفق كأنها ثعبان يسعى وسط صحراء فاحت ببريق الذهب. الهواء البارد الصادر من المكيف يرطب الأجواء من حولنا، ويُخفف من الشعور بهذا الوهج.

انتقل الأتوبيس إلى (البلاغة) لكي يثبت أعداد الركاب الموجودين في الأتوبيس بالمكتب الخاص بشركة النقل الجماعي، وحتى نستريح بالكافيتريا، ونؤدي ما فاتنا من صلوات.

أغسل وجهي لأشعر بانتعاش حقيقي وكأنني ما زالت في البلدة، أخرج منديلي مجففًا وجهي، وكأني أمسح تعبًا جمًّا قد حل بي، أتمعن فيه متسائلًا: ما بك؟ أراك شاردًا دومًا!.

ابتسم وهو يرد: يا بني ضجرت من السفر وتعبت ولا أستطيع أن أترك السفر، أتمنى أن أستريح، أنا هنا منذ خمسة وعشرين سنة.

- آه، إنه عمر..

استدار وهو يتنهد تنهيدة عميقة وكأنه عاد كثيرًا للوراء، ناظرًا للسماء وهو يقول: ربك يحلها..

- إن شاء الله خيرًا.

أنهى السائق توثيق الجوازات، وبدأ الأتوبيس في الانتقال، أخذت أنظر من وراء الزجاج على تلك البيوت المتناثرة منها القريب ومنها المتواري خلف الكثبان على طول الشارع وكأنها تودعنا أيضًا، أمسكت

زجاجة المياه وبدأت أرتشف تلك القطرات التي تدحرجت لتروي ظمئي (يا له من شعور).

وبعد أن قطعنا شوطًا من هذه الرحلة، بدأ الكل يتصل سواءً بأهلهم في مصر أو السعودية والكل يؤكد في جملة واحدة (لقد وصلنا الحمد لله).

أمسك السيد عبد العال حقيبته وبدأ يقلب فيها ليتفقد هاتفه وليستبدل شريحة الاتصالات المصرية بشريحة الاتصالات السعودية حتى يتصل ويكمل جملته هو الآخر (لقد وصلنا) وليكررها مرتين، مرة وهو يتصل بأصدقائه وأقاربه في السعودية ومرة أخرى بأهله في مصر، ولتبدأ عليه علامات التأثر بعدما أنهى اتصاله، أضع يدي على كتفه محاولًا أن أخفف من وطأة هذا الأثر.

الكل يلهث في الاتصال حتى انتابتني حمى الاتصال فأخرجت ورقة مكتوبًا فيها رقم علاء مستأذنًا من السيد عبد العال الذي رحب وهو يعطني هاتفه، أخذت الهاتف وأنا أدقق في الرقم وكلي لهفة أن أطمئن على علاء وأقاربي الذين يسكنون في جدة.

دقات الهاتف تتسلل إلى قلبي ليأتِني صوت علاء: السلام عليكم..

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته..

- أنا حسن يا علاء، الحمد لله وصلت.

يقابله صوت فرحة من الجهة الأخرى قائلًا: حمدًا لله على سلامتك يا حسن.

- الله يسلمك .. سلامي للجميع.

- يصل إن شاء الله..

يختتم علاء اتصاله ويودعني، أتفحص المكان وأجول في هذا العالم الرحب المثقل، بالفرح تارة، وكثيرًا من الأعباء تارة أخرى إنها الحياة بحلوها ومرها.

عند دقات الساعة الواحدة ليلًا لفت انتباهي تلك الأضواء الساطعة في لجة الليل لأستفسر من السيد عبد العال قائلًا: هل وصلنا جدة؟.

أجابني وهو يتثاءب: لا، إنها رابغ.

تعجبتُ من الاسم متسائلًا: إذن متى الوصول؟

- بعد ثلاث ساعات.

طلب مني أن أنام ولكن النوم يجافيني لا أعرف لماذا.

* * *

الأضواء تخترق ظلام الليل مقتربة منَّا ببطء ثقيل رغم سرعة هذه الحافلة التي تجتاز هذه المسافة.

أصوات الشخير بدأت تعلن عن نفسها لتخبرك أن الكل غطَّ في النوم، تثقل جفوني ليغلبني النعاس يمضي الوقت سريعًا يلوح في الأفق قرص الشمس ويترمى لنا موقف الأتوبيس، يهرولون حتى يلحقوا بحقائبهم التي يحتضنها جوف الأتوبيس قبل أن تنال منها بعض الأيدي خطأ فتضيع حاجات الناس سهوًا، أبحث عن السيد عبد العال لأساعده في هذه الحقائب التي يحملها ولنخرج من المحطة لنجد أصواتًا تزاحم آذاننا وهي تستفسر منا عن سيارة تنقله إلى المكان الذي ينشده.

أقف مكاني متطلعًا إلى تلك المباني القديمة التي تزين باب مكة، التي ما زالت آثار الحضارة القديمة باقية شابة وفتية تنظر إلينا بكبرياء. نشير للتاكسي الذي يقف بمحاذاتنا، نضع حقائبنا لينطلق بنا إلى مقصدنا.

يعبر من الشارع الرئيسي المؤدي إلى باب مكة وباب شريف وعيني ما زالت تحوم وتسبح في هذا الأثر الباقي والشامخ ليومنا هذا.

أخيرًا وصلت أمام البيت الكبير الذي يقطن فيه أقاربي برفقة السيد عبد العال المقيم في البيت والموكل بتوصيلي لأقاربي. البيوت مبنية بالطوب اللبن مرصوصة بجانب بعضها البعض وفي مقدمتها تتساند الإسقالة المعدنية كأنها تزين الأبنية بطابعها المعماري بالإضافة لبعض البراميل الحديدية والبلاستيك والأخشاب الملقاة أمام تلك البيوت التي يسكن بها هؤلاء الراحلون عن الوطن فتأكدت أن هذا هو العنوان المكتوب، سألته هل هذا هو البيت؟ أومأ برأسه أن نعم وهو يتجه نحو أحد المارة القاطنين في تلك البيوت المتشبعة بهم متقدمًا نحو السيد عبد العال ليسلم عليه.

كان البيت ذا بوابة خضراء عملاقة، طرقت الباب حيث أسمع أصوات ثرثرة لا تنتهي وطرقات خفيفة تصل إلى أذنيَّ وسط طرقاتي التي تعلو على الباب حتى يسمعني أحد، وبعد عدة دقائق يفتح لي علاء لأرتمي في حضنه وعيناي تتبعان أطياف البشر التي تحوم في المكان

لتشعرك أنك لم تفارق (المَلاحة) فهي كانت أيضًا تعج بالبشر المضطرب والمزدحم بأمور الحياة فقد كانت الملاحة بالغردقة ملجأ لهولاء الذين يبحثون عن سكن حتى يقوموا بالعمل في الإنشاءات وطبعًا كانت الملاحة أسوأ مكان في الغردقة حيث إن البحر عندما تزيد ماؤه يبدأ في غمر هذه الأرض التي سميت بالملاحة فتجد الناس دائمًا في حالة استنفار فنفس الصورة ما زالت عالقة في ذهني. فهذا عارٍ إلا من (الشورت) الذي يغطي نصفه الأسفل متجهًا إلى الحمام القابع على اليسار من مدخل الباب، وذاك يمسك بنرجيلته، ومنهم مَن يحرق سجائره داخل علبة (بيبسي) فارغة، وآخر يفترش غسالته مقتلعًا بطنها من الأسلاك المتهالكة، واثنان يلعبان (الدومينو)، وأدخنة متصاعدة من مطبخ مغطى ببعض الصاج والإسفنج الذي يعلو قامته.

ليأتيك الصوت: لقد حرق النمر الطبيخ..

لتزداد الضحكات من الجمع المحتشد وليضطرب بعض منهم ليهرولوا مقتنصين الفرصة لرؤية هذا المحروق من الطبيخ وليلسعوه

بالتعليقات اللاذعة.. يزمجر النمر حاملًا إناءه المتفحم ليلقي به في حوض المطبخ.

لا يهدئ من هذه الحركات البهلونية سوى دخولي من مدخل الباب حاملًا حقيبتي وحاملًا بداخلي أحلام الجنة المدسوسة.. يهرول عمي أحمد نحوي لأرتمي في أحضانه فلم أرَه منذ خمس سنوات، لأنه ذهب إلى تلك الجنة التي أراها الآن.. يسألني عن حالي، وعن رحلتي وعن أشياء كثيرة، كأنه يبحث عن البلدة كلها فيراها فيَّ. أتلعثم مرتبكًا لا ينقذني سوى خالي ناصر الذي يبدي تذمره قائلًا: اتركنا نسلم عليه وبعد ذلك اسأله..

يلتف حولي لفيف من هذا الجمع لأرتمي في أحضانهم والكل يسألني: أخبار البلدة، وما هو الجديد فيها؟!

أجيب هذا وأتغاضى عن ذاك، يسحبني علاء ابن خالي من هذا الفوج المتزاحم والأسئلة التي تلاحقني، حاملًا حقيبتي وأغراضي ليمضي بي إلى الصالة التي يزدحم بها هؤلاء البشر إلى ممر ممتد أمام

الغرف لأسكن آخر غرفة وأضع فيها حاجتي، أخرج الأشياء المؤتمن عليها من سمن بلدي وجبنة قديمة وملوخية ناشفة...

أعطيها له ليوزعها لأصحابها، يجيء عمي هامسًا: احذر أن يأتي أحد إليك لكي يعزمك فتطاوعه، نحن قمنا بتجهيز كل شيء، إن شئت بعد يومين.

أومئ برأسي بالموافقة، يتركني هو وعلاء ابن خالي فواز الأنصاري لأستريح من وعثاء السفر.

أتطلع إلى الغرفة التي سأسكن فيها، تفوح منها رائحة غريبة أشبه ببالية قديمة بالإضافة إلى رائحة السجائر التي تغمر الغرفة وبقية السجائر المبعثرة على الأرض.

أما بالنسبة لسقف الغرفة فهو عبارة عن أخشاب مزروعة في الحائط مكسوة بقشرة من خشب (الأبلكاش).

الغرفة واسعة، ولكن تكثر بها الأسرَّة، فهي عبارة عن ثمانية أسرَّة، تكتظ بها الغرفة، أما بالنسبة لأرضية الغرفة فتجدها مفروشة بكليم أو مراتب من الإسفنج تعبئ الغرفة.

وتزخر بها بشكل عام وبالكاد تنجو من أثر قدم أو يد أو رأس في بعض الأحيان لتلك الطبقة التي تفترش الأرض، إذا أردت أن تدخل الحمام.

ويتوسط الغرفة تلفاز يحيط به هذا الجمع، ولا يستطيع أحد أيًّا كان أن يمسك (الريموت) إلا من ساهم في شرائه، حتى وإن ساهمت في التصليح أكثر من مرة، يقتصر الأمر على القدامى، أو أول الذين قاموا بشرائه، وكذلك الأمر بالنسبة للمكيف. وسواء التلفاز أو المكيف فقد اشتروهم من (سوق الحراج) وطبعًا بأبخس الأسعار. في الغرفة أيضًا شباكان، الضلفة الأولى مكسوة بكرتون مع زجاج متكسر، والضلفة الثانية محشوة بملابس بالية لتمنع تسرب الهواء الساخن، أقصد البارد، لا أدري؟!.

لقد كان هذا البيت حلم كل شاب في القرية أن تطأ قدمه هذا البيت، قد يكون الحلم نابعًا من الحكايات التي نسجت من الزائرين له والذين يثرثرون عن حياتهم التي قضوها فيه ولكن هذا البيت لا يستحق كل

ما قيل عنه، فبيوتنا التي في القرى أفضل منه، إذن ما السر؟ لعله سيظل لغزًا سأكتشفه تدريجيًّا وقتها سأعرف لماذا نسجت كل هذه الحكايات. أضع رأسي على تلك الوسادة التي تحمل روحي إلى بيتي القابع هناك حيث الأهل والذكريات.

❋ ❋ ❋

(2)

يصدح صوت أذان الفجر عاليًا، أنهض على مهل، الرءوس بدأت تشب من مرقدها، هسيس الأصوات يعلو شيئًا فشيئًا، أمد بصري إلى هذا الساكن في فراشه وهو يتطلع إلى دبيب الأقدام التي تسعى في هذه الغرفة، أراه يسحب غطاءه مرة أخرى وكأن النعاس يغلبه صوت عال ينادي عليه، يعلن أحمد له شخيره بطريقة اصطناعية، يتقدم ناصر نحو سريره والغضب يكسو وجهه قائلًا له: قم يا أحمد لأني لن أتركك اليوم تجعلنا نتعطل عن العمل مرة أخرى.

يخرج صوت أحمد متعبًا وهو يقول: تعبان..

- وما يتعبك؟

- قدمي تؤلمني ويدي تؤلمني والعمود الفقري.

يكتم ضحكته بيده من تحت غطائه ناظرًا إليَّ لأبادله بابتسامة.

يستشيط ناصر غاضبًا وهو يوجه الحديث إليَّ: انظر إلى عمك، هذا فعله كل يوم!

اعتدل السيد عبد العال بصلعته اللامعة وهو يسحب الوسادة ببطء ليضرب بها أحمد مازحًا وهو يقول: اسمع الكلام واذهب للعمل..

يتركهما ناصر نافضًا يديه في الهواء بعدما بدءوا في المزاح وهو يشيح برأسه نحوي مكررًا كلامه بحنق: انظر لعملك..

لتنطلق الضحكات عالية منهما ولتتطاير الوسادات في الهواء..

أضحك وأنا أراه يغمز لي، أشرع في الذهاب لصلاة الفجر حيث ينسل الجمع إلى المسجد.

من يمسك حذاءه ومن يجمع شتات ملابسه المبعثرة ليضعه في كيسه البلاستيكي، ومن يضع بقايا خبز من (البيك) أو بعض من الفطائر المرسلة من القرية أو بسكوت من البقالة في كيسه، ومن يشعل سجائره وينفث بها في الهواء غير عابئ بضيق أحد من الدخان.. أما الباقي فينتظر دوره لدخول الحمام، لماذا الطوابير تحاصرنا دائمًا؟ لقد فرضت علينا من الازدحام.. أجلس على كرسي أنتظر دوري في هذا الحشد المضطرب والمتزاحم على دورة المياه الصغيرة ومن ينتهي في هذه الدورة، يقبض على كيسه فارًّا إلى عمله وهو يقرأ المعوذتين على الأعين الملعونة التي

تنظر إلى جنته، أما من لم يصبه الدور، أو من لم يوفق في أن يجد عملًا فعليه أن ينهض أيضًا ولكنه يمضي إلى طريق آخر، يطرأ على عقلي سؤال: هل هذه هي الغربة التي حلمت بها؟

ما زلت أنتظر، يخرج علاء قائلًا: قف في الصف لأنك ستجلس كثيرًا، أنهض وأنا أتألم من ألم الإمساك، يا له من يوم.

أخيرًا.. سأدخل الحمام وعندما فتحت الباب، وليت مدبرًا ليضحك علاء بصوت عال فهو المتواجد الوحيد في السكن؛ لأنه اليوم ليس لديه عمل ولكن رغم ذلك نهض مبكرًا، يسألني: ما بك؟.

– ليس بي شيء.

أكمم أنفي داخلًا الحمام.. وأخرج مسرعًا قبل أن ألقى حتفي.. ألحقهم حيث أمرُّ عبر هذا الباب الثقيل المغلق بإحكام، المسجد في نهاية الحارة، صوت إقامة الصلاة يأتي إلى مسماعي صافيًا حلوًا نافذًا للقلب. بعد الصلاة أعود أدراجي عائدًا للبيت.

تباشير نور الصباح تسطع في الأفق وما زال ناصر يحاول مع أحمد لتتبعه همهمة من السيد عبد العال وضحكات خافتة من الجهة الأخرى.

لأجد علاء يضع الشاي والبسكوت أمامي قائلًا: افطر بسرعة لكي نلحق بالسوق..

أردد: أي سوق؟

يضحك قائلًا: سوف ترى، فقط أسرع.

أدفع بالبسكوت في فمي وأزيحه ببعضٍ من الشاي قابضًا علي كيسي قائلًا: هيا بنا.

يضحك كثيرا وهو يقول: أنت مشكلة.

مضينا ساعة ونحن نسير في الطريق حيث اخترقنا إشارة المرور والسيارات المزدحمة حتى (ستي ماكس) أتنهد وألهث قائلاً: يا شيخ حرام عليك، ألم نصل بعد؟.

- اقتربنا، لا يتبقى غير خمس دقائق..

- أنت تخبرني منذ ساعة أنه لم يتبقَ غير خمس دقائق، هل سنمضي في هذا الطريق دون نهاية أم سنبحث عن عمل؟.

يقهقه وهو ينظر إليَّ متعجبًا ناطقًا: تذكرني بنفسي عندما نزلت بهذا المكان ووطأت قدماي الطريق قاصدًا السوق ويصطحبني خالك ناصر.

لا أستطيع أن أرد من اللهث.. لتستغرقني الأفكار إلى الغردقة حيث ذلك السوق القابع أمام هيئة بريد الغردقة لتجد من يقف أو يجلس ومن يتمدد على الأرض ومن أسفله كرتونة ومن يجد ظلًّا كأنه وجد جزءًا من النعيم، يا له من عالم، أليس هناك أحد يشعر بتلك المأساة؟ لا أظن.

أخيرًا وصلنا إلى السوق (ميدان الدراجة) وهو المتعارف عليه باسم سوق العمال، نفس الزحام وإن اختلف فامتلأ بكل الجنسيات، باكستان، الصومال، الهند، السودان.

وطبعًا نحتل الجزء الأكبر، دائمًا مشردين فإذا بحثت في كل البلاد ستجدنا هناك نتنظر تحقيق الحلم في توفير حياة كريمة، فالكل يلبي طائعًا أو مجبرًا، والاختيار عائد لك.

نجلس على الرصيف ونراقب السيارات التي تمضي في الشارع، تقف سيارة، يهرول القاصي والداني إليها محاولًا كل فرد استمالة صاحب السيارة إليه وعندما ينجح فرد منهم تفتش الأعين عن سيارة أخرى مثل النحل ليهرول إليها ولكن دون جدوى. منذُ بضعة أيام ونحن نجيء إلى السوق وبدأت الأعداد تزيد في البيت الكبير حتى أن البيت كله أصبح

بدون عمل، بدأ الكل في ملل مقيت لدرجة أن النمر عندما نكون جلوسًا في الصالة المضيفة لتلك الوجوه ينهض قافزًا وهو يقول: هيا بنا لنرقص.. ويأتي بأي محطة تذيع الأغاني ليطلب من حسين الكردي والسيد عبد العال النهوض من أجل وصلة الرقص، يقهقه الجميع من تلك الرقصات الغريبة التي يؤدونها من أجل أن يزيلوا تلك الكآبة المرتسمة على الوجوه، ولكننا أيضًا لم نكف أنا وعلاء عن الذهاب إلى السوق وما زال علاء يقفز وراء السيارات على أمل أن يقتنص من عسل النحل هذا ويسقيني من كأس الجنة المفقودة، ولكن دون جدوى.. يعلمني كيف أسعى وراء رزقي، أنظر على مهل.. بعد فترة لم تدم طويلًا جاءنى علاء بالخبر قائلًا: ما رأيك سنسافر للطائف؟، لقد قابلت المهندس طارق البشير واتفقت معه على الأجر.

ما زال(حسين) يُصلح في غسالته محاولًا باستماتة أن يصلحها فتجده يجلس على الأرض والشريط اللاصق في يده، يقطع ويوصل الأسلاك.

النمر والسيد عبد العال هما الوحيدان اللذان يجلسان بمحاذاة حسين منتظرين منه أن يبادر بخطأ حتى تبدأ السخرية منه، ولأن أحمد يشفق في

بعض الأحيان على حسين فهو الوحيد الذي ينهي هذه السخرية قائلًا: كفى مزاحًا يا جماعة..

حتى أنى أعجب مما أراه، لماذا نتصيد لبعضنا الأخطاء؟. ينظرون إليه، يوصل سلك الغسالة بالكهرباء، خيوط الدخان ورائحة البلاستيك المحترق تتسرب إلينا، ينزع السلك بسرعة ليقهقه النمر فرحًا وليزمجر السيد عبد العال قائلًا: يا أخى منذ شهر تحاول إصلاحها ولم تفلح، خذها للكهربائي..

ينظر السيد عبد العال إليه قائلًا: هيا يا حسين، اذهب بها..

يمضي إلى غرفته لكي يلبس عباءته فهو لا يلبسها إلا في الخروج من البيت أو عندما يحل الليل.

على الرغم من أنه يمتلك الكثير من الثياب إلا أنه يعتقد خطأ أنه بهذه الطريقة يوفر هذه الثياب للأيام التي يحل فيها ضيفًا في البلدة، نعم لأننا لا نتأخر في قرارنا لأن الحياة ترغمنا سريعًا أن نحل الركاب ونمضي في الأرض الواسعة باحثين عن الرزق، ولكن في هذه الفترة الصغيرة التي نحل فيها ضيوفًا يفتتن الشباب والرجال بتلك الثياب

والأحذية التي تبهرهم فيهيمون على وجوهم باحثين عن تلك الجنة ليبيعوا ما ملكوا من أرض أو أن يفتدوها ببيع أبقارهم الحلوب وبعض من حُلي أهل الدار وبعدها ينتظر الجميع خاتم سليمان ليحققوا به كل ما يحلمون به.. ولكن هيهات؛ ما زالت البطون خاوية وما زال حسين الكردي يوفر في كل شيء، من أكله إلى ملبسه إلى دوائه، وكل هذا من أجل أن يمضي وقته في قرية المراشدة وهو يتباهى بتلك الملابس والحذاء الغالي الذي اشتراه من أجل أن يرى نظرة الانبهار التي تبرق في أعين الناس وحتى يسمع تلك الكلمة التي تجعله يشعر بنشوة الحياة عندما يقابله أحدهم ويسلم عليه قائلًا: أخبارك يا حاج..

لتجده يتمختر في حركاته والفرحة تملأ قلبه قائلًا: الحمد لله يا ولدي..

ولكن هذا الشعور يزول عندما يجد أحدهم يهمس في أذن الآخر، لتجد الشكوك تساوره وهو يسأل نفسه: بماذا يخبره..؟.

إجابات كثيرة تنتابه ولكنها متمثلة في النهاية بذلك اللقب الذي يدور دائمًا بعقله وهو يردد بهمس: أكيد بيقول شوفوا العبد لبس إيه

واحنا أولاد النسب لابسين إيه.. يرجع بعدها ورأسه تتدلى على صدره ولكن بمجرد أن يسمع كلمة (يا حاج) تنتصب قامته مرة أخرى.. ياه لتلك الأحلام التي تسلبنا حياتنا غير مهتمين لواقعنا، نعم إنها الحياة فإذا مات الأمل انتهت الحياة لنظل عبيد تلك الأفكار الراسخة في عقول الشباب فقد اتسمت عائلته أيضًا بلقب العبيد، فعندما تحدث مشاجرة بينه وبين أحد الأطراف يستحضر لقب العبد لينكث رأسه على صدره موجوعًا ذليلًا لذا يتحاشى أن يدخل مع أحد الأطراف في مشادات فيصمت على أمل أن يسكتوا عنه ولكن البعض إذا عرف نقطة ضعفك أتكأ عليه، كان يعتقد حسين الكردي أن تلك الملابس قد تغير من وجهة نظر الناس له لذا عمل على أن يشتري أيضًا أرضًا فهي التي ستُثبت جذوره نحو الأرض ليكون ابن الأرض أو ابن قرية المراشدة التي يتمسك بها كثيرًا.

* * *

تزوج حسين من العائلات المهمشة في البلدة فكان بالنسبة له طوق نجاة حتى ينجي أولاده من هذا اللقب، معتقدًا منه أن هذا اللقب

سيمحى، ولكن الصحيح أننا نظل نعيرهم بألقابهم فيكتفون بوصم الآباء بأنهم سيظلون عبيدًا وسيورثون هذا اللقب لأبنائهم.

أما بالنسبة للمسافرين في مناكب الأرض فدائمًا يلقبون باسم الأم لأن الوالد غائب ولذلك فهي الراعي والمسئول عنهم هكذا هي الألقاب تحاصرنا حتى بعد هذا الكم من التعليم الذي حل بالقرى ولكن العادات التي تعودنا عليها هي التي تتحكم في مصائرنا وتحدد مسيرتنا للحياة التي نحياها دون النظر للمكانة التي أصبناها. عندما نكون جلوسًا في الصالة يسحب حسين الكردي الدومينو ليضعها على المنضدة التي تتوسط الصالة وليستريح على كرسيه الذي تعتليه حشوة من الإسفنج طالبًا من الحضور وهو يلعب بيمناه في شاربه الكث اللعب ينهض السيد عبد العال على مضض فهو لا يستطيع أن يهزمه وليشد النمر كرسيه لمشاركتهم اللعب، لا أحد يستطيع أن يهزم حسين الكردي إلا أنه يتغاضى للنمر عن فوزه ليتجانب لسانه الذي يلسعه بكلماته الموارية والتي يتجانبها حسين مصطنعًا الهزيمة أمام النمر تاركًا جلسته هذه متجهًا صوب غسالته ليضعها أمامه ويبدأ بتفكيك مساميرها مطأطأ

الرأس شاردًا في عالمه لا يقطع هذا الشرود سوى أحمد الذي كان خارج البيت محدثًا صوتًا عند تحريكه هذا الباب الثقيل ليهازحه حسين قائلًا: الله يكون في عون جوالك، منذ ساعة وأنت تكلم أم الأولاد..

يتنهد أحمد تنهيدة عميقة قبل أن يشعل سيجارته نافثًا دخانها في الهواء لتلفه أغلالها راسمة ضحكات هامسة ما زالت ترن في أذنيه وهو يقول: أتدري يا حسين، أجمل شيء هو الحب، تقابله قهقهة عالية من ناصر الذي يمص هو الآخر في سيجارته حتى آخرها ليرميها وهو يتجه إلى أحمد مكررًا كلمته: الحب وليسحب منه سيجارة أخرى وليستطرد أحمد قائلًا: نعم، الحب يا ناصر.

ولترسم الأدخنة التي يطلقها في الهواء خيالات تداعب عقله ووجدانه ولتأخذه معها تاركًا المكان وينزوي في غرفته مع هذه الأحلام التي تروادة..

عندما ذهبت مع حسين الكردي، أو هكذا يطلق عليه، بادرته بسؤال: منذ متى وأنت تسافر؟. تبسم وهو ينظر لي من ذاك الجحر الضيق رافعًا حاجبيه وأجاب بنبرة حزينة قائلًا: أنا دائمًا راحل عن بلدي

وأبنائي وزوجتي، فقد سافرت إلى العراق والأردن وأخيرًا استقر بي الحال هنا في جدة.

لماذا لم يجبني إجابة تريح عقلي وكأنه يهرب من السؤال لا أدري، ولكني بادرته قائلًا: أبناؤك في القرية.. أعرفهم؟.

نظر لي نظرة لن أنساها، خليط من حزن وابتسامة غير مكتملة قائلًا: لي أبناء في العراق.. وأبناء في المراشدة.

أحسست بأن الغربان تنهش في رأسي محاولًا الاستفهام.. أوضح لي أنه عندما سافر العراق مكث بها ثلاث سنوات وتزوج من عراقية وأنجب طفلين ولكن عندما حدثت الحرب على العراق التي قادها جورج بوش وقعت قذيفة على بيتهم أودت بحياتهم وكان هو الناجي الوحيد، تأسفت له عن جهلي بالموضوع وإقتحامي تلك الذكريات، أجابني قائلًا: أنا نسيت من زمان وربنا كرمني بأم أحمد..

تبسمت له قائلًا: الشيء الأخير، ليه لقبت بالكردي؟.

أخذ يقهقه بصوت عال مختتمًا بدمعة خطت على وجهه وجع السنين التي حاول أن ينساها قائلًا: لأن زوجتي العراقية كانت من الأكراد..

دائمًا يهاتف الحاج فواز ابنه جعفر ليطمئن عليه وعلى إسراء ابنته وعلى حمدية ونفيسة زوجاته فالحاج فواز صارم يحب متابعة كل كبيرة وصغيرة فيقدم التهنئة في الأفراح ويقدم واجب العزاء في الأقداح إذا وصله خبر من جعفر يخبره بالحدث الذي وقع ولأن الحاج فواز كبير عائلته بعد والده الأنصاري فلا بد أن يتابع كل هذا وعلى الرغم من أن جعفر أصغر من حمدي إلا إنه يعتمد عليه اعتمادًا كليًّا فهو في نظره رجل البيت، أما حمدي فقد كان فتى مدللًا جلب المشاكل التي عانى منها الحاج فواز لذلك فقد حرص على جعفر حتى جعل منه ما يرجوه. وعندما شب جعفر فكر كثيرًا بأن يزوجه وعندما زف له الخبر فرح، فعرض عليه والده ابنة عمه أحمد، بأن يخطبها له.. وافق جعفر متفقين أن يتمم لهما بعد موسم حصاد القمح.

طلب فواز الأنصاري يد (ليلى) من أحمد الذي وافق بدوره قائلًا: هو إحنا هنلقى أحسن منكم يا حاج فواز..

امتلأ صدر جعفر فرحًا وبشر بالخبر الذي زفه له والده، لأنه كان يشعر بميل تجاه ليلى ولذلك قام بارتداء أفخر الثياب الموجودة لديه،

وعندما شاهدته والدته أطلقت (زغرودة) رجت البيت وهي فرحة بفرح ابنها، والذي قبَّل بدوره يد والدته مستأذنًا لأنه سيذهب لزيارة بيت أحمد الدنقل، لتداعبه والدته وهي تقول له: قصدك ليلى، مش بيت عمك أحمد.

يضحك على استحياء ماضيًا في طريقه، وقلبه يرفرف من الفرحة التي ملأت قلبه وعينه تمتد على الطريق تستعجل رؤية (ليلى) التي سيراها دون خوف أو ترقب أن يراه أحد وهو يتلصص عليها. يقترب من البيت، يطرق الباب، ومع كل طرقة تسري في جسده رعشةً ترجف جسده تعبر عن قلق وفرحة تسيطر عليه لأنه لأول مرة سيجلس معها وجهًا لوجه، يُفتح الباب ليرى أمها وهي ترحب به، وفي زواية البيت يلمح ليلى وهي تتوارى في استحياء خلف الجدار والابتسامة تعلو محياها.

* * *

أشرقت الشمس على وجه السيد عبد العال النائم خارج الغرف في الصالة التي تحيط بها الجدران وتغطيها السماء الرحبة، فطبيعة السيد

عبد العال أنه لا يحب هذا المكيف أو النوم في الغرفة إنما هي للاستراحة في النهار وليخبئ حاجاته سواء تحت السرير أو فوقه، (يا له من عالم غريب نقتني أقل الأشياء فنشعر بأننا نمتلك العالم كله) و إذا أردت أن تهرب من حر الغرفة لأنه ممنوع منعًا باتًّا تشغيل المكيف إلا في وقت النوم، لذا فأمامك خياران: إما أن تذهب لتشتري أي شيء من البقالة لتستمتع بالمكيف، وأنا خاصة أعشق (الحمضيات) فهي تشعرني بالانتعاش مستمتعًا بالهواء البارد الصادر من المكيف، أو عليك أن تذهب للبحر لتستمتع بشاطئ جدة.

دائمًا كنت أتخيل تلك الحياة التي قرأت عنها، إن جدة من أقدم المدن وإن بها سورًا كان يحيط بها وقد تم إنشاؤه في العهد المملوكي بأمر من السلطان المملوكي "قنصوة الغوري". لم أكن أتعجب إلا من تلك الوجوه الحالمة التي تسكن البيت الكبير، وأكثرهم سلطة في هذا البيت هو الحاج فواز الأنصاري وخالي ناصر، ولذلك فكل من في هذا البيت يقدر الحاج فواز لأنه محرر عقد إيجار البيت وهو أقدم واحد فيهم، ومن

يجادل معه فله مطلق الحرية بأن يطرده شر طردة من البيت الكبير لأنه صاحب العقد.

يوم الجمعة يشهد هذا الجمع اضطرابًا، فالكل ينهض مبكرًا ليشتري أغراضه وليقتنص فرصة للحصول على شعلة من الشعل الثلاث للبوتاجاز ومن لم يصبه الدور في اقتناء فرصة الحصول على شعلة فعليه الانتظار حتى يفرغ أحدهم من إعداد طعامه الذي يراه كأنه عسل شهي، ولذلك فإن علاء ابن خالي يريح دماغه فيقوم بالطبخ مساء الخميس حيث يكون فارغًا من هؤلاء الذين يتناوبون عليه، وبالذات في يوم الجمعة لا يستكينوا أو تستريح أنفسهم حتى ينجزوا ما يريدون حتى القطط كانت على موعد معهم في هذا اليوم فهي فرصة سانحة لالتقاط ما تيسر لها من قطع ترمى لها أو بعضها يقوم بانتزاعه خلسة منهم لتجدهم يهرولون خلفهم حتى يسترجعوها وسط اضطراب وزخم يحيط بالكل ولكن هيهات أن تحصل عليها فهذه القطط تبحث عن رزقها أيضًا.

وبعد صلاة الظهر يهرول الجميع نحو المطبخ لتسخين طعامهم، ولاستقبال ضيوفهم الذين حلوا عليهم وسط ضجيج لا ينتهى إلا عند الذهاب للنوم.

* * *

ما زلت أذكر عندما كنت جالسًا في الصالة الواسعة وطرق الباب ونهضت أفتح لأجد حمدي حاملًا حقيبته متعجبًا من المكان ومتعجبًا من رؤيتي أيضًا، سلمت عليه حاملًا حقيبته التي بها تكمن كل أحلام من ارتحلوا حيث الكنز الذي سيعبئون منه أحلامهم، جلس حمدي على الأريكة الملاصقة للمروحة وآثار التعب تبدو عليه، طلبت منه أن يأخذ حمامًا سريعًا حتى أجهز الغداء له، قام بفتور متجهًا إلى ذلك الحمام الذي لا يزيد حجمه عن مترٍ في مترٍ لعلها الصدمة الأولى له حيث عاد متسائلًا: إيه الريحة دي؟

أخذت أضحك دون أن أرد عليه، وهو يعود أدراجه إلى الحمام أما أنا اتجهت إلى المطبخ لأغسل الأواني وأضع اللحم فيها ولأستعد لمعركتي

مع البصل، البكاء، أقشره ثم أقوم بتقطيعه لقطعٍ صغيرة، ثم الطماطم وفي كل طبقة أضع اللحم وفي النهاية أضيف التوابل مع السمن البلدةي الذي لا ينقطع أبدًا عنا في السعودية وأضعها على نار هادئة طالبًا من حمدي أن ينام على سريري ليستريح.. يتساءل قائلًا: لكن رغم إن الجو بارد في البلدة هنا الجو دافي..

أخذت أضحك وأنا أقول له: هذا سحر جدة..

يؤمئ برأسه وهو يشير بسيجارته: أكيد..

أمسكت الهاتف وأخذت أبحث عن رقم علاء لأخبره بوصول حمدي إلى البيت الكبير الذي فرح بخبر وصوله طالبًا مني أن يكلمه فأعطيته الهاتف فأخذ يطمئن عليه ويسأله عن أخيه جعفر وعن والدته وعن حال مصر وعن إخوته جعفر وإسراء، وحمدي يطمئنه أن الكل بخير، يغلق المكالمة وهو يأخذ نفسًا من سيجارته ثم ينفثه في الهواء. كان رنين الهاتف لا يتوقف الكل يريد أن يطمئن عليه والكل مشتاق ليعرف الأخبار التي تساق مع الضيوف الجدد الذين يحلون في البيت. بدا على

صوت حمدي الإنهاك من هذا السفر الطويل الذي يستغرق ثلاثة أيام فيجعلنا نحلم بالنوم لذا طلبت منه أن يذهب ليستريح في الغرفة إلى أن أجهز الطعام فأطرق برأسه ليذهب إليها.

(3)

عندما تطيب الأرواح للذكريات تداعبهم الأفكار بالقادم من القرية، لذا أنهى ناصر الأنصاري عمله مبكرًا أو كما يحب أن يلقب "أبو سعد" حتى يستأنس بالجلسة معي ومع حمدي القادم من أرض المراشدة، يسأله عن سعد قائلًا: كويس؟

يجيبه حمدي في فرح وهو ينفث دخانه قائلًا: ما شاء الله عليه.. خلى للبيت حس بعد ما كرمك ربنا بيه..

يفرح أبوسعد بهذا الخبر ليقهقه بصوتٍ عالٍ قائلًا: الحمد لله.

لم يكن مقتنعًا في البداية بالذهاب للطبيب عندما حدثته زينب بأن الطبيب أخبرها بأنها بخير ولا بد من الكشف على زوجها لمعالجة العلة، خاف ناصر الأنصاري من ذلك الخبر معتقدًا أنه غير صالح للإنجاب لذا عانى فترات من اليأس والإحباط فقرر الالتحاق بأخيه فواز ولكن فواز كان أكثر رجاحة منه لذا أرغمه بعد أن قضى سنة من الحزن في السعودية أن يسافر إلى القاهرة للكشف الطبي؛ لأن العاصمة تزخر

بالأطباء أما الصعيد فهو دائمًا منسيٌّ حتى من أبنائه الذين نجحوا وتفوقوا، فدائمًا يرحلون إلى المدن تاركين أهلهم في براثن المرض ينهش في الأجساد المتعبة، لذلك استجاب لأننا في الصعيد نُكبر كبيرنا ونحترم رأيه إذا كان صوابًا، لذا حجز ناصر في الحافلة التي تسافر إلى مصر، كان الطريق طويلًا عليه وكأنه لن يصل، يرفع يديه داعيًا الله بأن يكرمه، أما زوجته فترقبه بين الفينة والأخرى ورأسها متدلية على صدرها.

أخيرًا توقفت الحافلة، فهي توصل الركاب إلى المحل الذي ينزلون فيه، وكان مكان ناصر عند أحد البيوت التي يظهر عليها أثر الزمان من سواد يغطي واجهة البيت إلى باب خشبي ثقيل يصدر صوتًا كئيبًا عند تحريكه، وقف عند أول درجة للسلم وخلفه زوجته ترقب هذا المكان العجيب وكأن المهمشين حتى إذا انتقلوا للمدينة فالظروف تمنعهم أن يختاروا بيوتهم ولا أحد يسأل فهم دائمًا منسيون، نادى ناصر بصوت عالٍ: يا عبد المقصود.. يا عبد المقصود.

يأتيه الصوت خشنًا مبحوحًا بعض الشيء من أعالي البناية: مين بينادي؟.

يرد عليه: أنا ناصر الأنصاري يا عبد المقصود.

انخفض الصوت منكسرًا وهو يجيبه: يا أهلًا.. يا أهلًا يا ناصر، دقيقة ونازل.

يغيب بعض الشيء ثم يصل لآذانهم فحيح أنفاسه وهو ينزل درج السلم ينهج وجسده قد ملأ الدرج، ترتعش يده وهو يصافحهما، تطلعت إليه زوجة ناصر بتعجب فهو يشد الانتباه ولتندهش كل الاندهاش بأنه كيف اجتاز هذا السلم اللولبي حتى يصل لآخره (يا لها من حياة يثيرك حلوها وتشمئز من مرها) فكيف لهذا الرجل أن يسكن سطح هذه البناية.

يرحب بهما عبد المقصود طالبًا منهما أن يلتقط أنفاسه حتى يعاود الكرة مرة أخرى، ولكنه جحيم الصعود حيث الأنفاس المتسارعة والأرجل الثقيلة التي تدب على درج السلم والجسد الذي يرتج والنفس ينهج بشدة، أزيز صدره يصل إلينا، يقف للحظات ليلتقط أنفاسه وتقول زوجة ناصر بخفة دمها المعهودة في أذن زوجها: ربنا يستر على البيت..

ابتسامة ترتسم على وجه ناصر مع غمزة عتاب لأنه يشفق على الرجل.

خارت قواهم وهم يسحبون تلك الأرجل المثقلة، ونفسها امتلأت إشفاقًا على عبد المقصود وهذا الجحيم الذي يعيش فيه..

ظهرت على درج السلم الأخير زوجة عبد المقصود وهي ترحب بالضيوف الذين حضروا من الصعيد، وهي تفسح لهم المكان الذي سيجلسون فيه، حيث كان مليئًا بالملابس المبعثرة. ألقوا بأجسادهم المتعبة من هذا السلم على الأريكة والأنفاس متلاحقة.

تسرع زوجة عبد المقصود لتحضر الماء، الذي تتناوله الأيدي في لهفة مزعجة وعيون متطلعة إلى هذه الغرفة التي يسكنها عبد المقصود وأمامها طفلان، ولد وبنت يلعبان أمامهم، فعبد المقصود هو الآخر تأخرت زوجته في الإنجاب إلى أن ذهب لطبيب محترف بعدما باع الغالي والرخيص، حتى رزقوا بعلي وتحسين.

تتطلع زوجة ناصر وهي تكبر وتصلي على النبي وما زالت يدها تمسح تلك القطرات المستنزفة من أثر السلم.

أخيرًا تأتي نسمة هواء ترطب من ذلك الجو الذي حل عليهم، ترتسم الضحكات في الهواء الطلق بعد مداعبة الطفلين، يجيء الغداء ليأكلوا في هناء، والأمل يملأ قلوبهم والفرحة تبرق في أعينهم.

طلب ناصر من عبد المقصود أن يبحث له عن غرفة بحكم أنه أدرى بالمنطقة، ولكن عبد المقصود رد منفعلًا: إزاي بيت أخوك موجود وتقول لي إيجار؟!

نظر ناصر إلى الغرفة التي لا تبلغ مساحتها سوى ثلاثة أمتار متسائلًا: طيب ازاي.. سامحني المكان ضيق هاجي كمان أضيق عليك.

يطأطأ رأسه وهو يقول: أنا عارف إن المكان ضيق مش زي بيوتنا في البلدة لكن هيشيلنا كلنا.

وضع ناصر يديه على كتف عبد المقصود قائلًا: يا أخي أنا مش قصدي ما تفهمنيش غلط أنا مش عاوز أضيق عليكم.

ارتسمت على وجه عبد المقصود ابتسامة منكسرة وهو يرد عليه قائلًا: لا يا ناصر أنت هتشرفنا وما تقلقش إحنا هنخلي الحريم تنام في الأوضة وأنا وانت هنْنَام هنا في الهوا زي أيام زمان، فاكر؟.

يضحك ناصر مداعبًا عبد المقصود وهو يقول: آه، ما أنا فاكر الساقية اللي كنا بنلعب عندها وكمان كانت أول مكان أشوف فيه بنت عمك.

تغمزه زوجته وهي تبتسم في استحياء ليضحك عبد المقصود بصوت عال، فدائمًا ضحكاته عالية لتجد جسده كله يهتز كأنه سينفجر.

طلب عبد المقصود من زوجته أن تجهز الشاي، فنهضت معها زوجة ناصر لكي تساعدها وتستفسر عن الطبيب ولتسمتد منها ذلك الأمل الذي امتلأ بداخلها وتلك الفرحة التي ارتسمت على وجهها.

في اليوم الثانى استعد ناصر وزوجته للذهاب للطبيب ترافقهم عائلة عبد المقصود وبعد متابعة دامت أربعة أشهر كان قد قاضها ناصر في القاهرة ليعمل معه في أعمال الإنشاءات ومتابعة للطبيب بالمساء إلى أن اقتربت التأشيرة على الانتهاء فقرر السفر إلى قنا مودعًا عبد المقصود وعائلته، وبعد عدة أسابيع قضاها في البلدة وسط أهله، اضطر إلى أن يودع الجميع مغادرًا البلدة كلها ليركب السفينة مرة أخرى، وليمتطي عباب البحر في رحلة الشقاء التي لا تنتهي.

جاءه الخبر من زوجته زينب التي هاتفته لتزف له البشرى.. فقام ناصر بذبح شاة وطهيها وتقديمها لقاطني البيت الكبير واقتطع جزءًا من مصاريف بيته ليرسلها تصدقًا للمحتاجين في القرية.. أخذ يتابع ناصر زوجته كل يوم يسألها عن أخبارها وأخبار الحمل إلى أن دبت الحياة في (سعد).

فرح ناصر وتصدق كثيرًا وكان يتمنى أن يسافر ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، لأن الكفيل رفض أن يعطيه إجازة إلا بعد أن ينهي العمارة التي يمتلكها كاستثمار ليبيعها ويربح منها فيقوم بأعمال التشطيب والمحارة ثم يتابع العمالة إلى أن يسلم العمارة ويبيعها؛ لذا ظلت زوجته ترسل له صور سعد يومًا بيوم وكان سعيدًا به ويحكي عنه كأنه فارس يشتاق كل يوم لرؤيته وتحسس أنامله ولكن الحياة كدٌّ وتعب ولأننا رجال لا بد أن نتحمل، حاول أكثر من مرة أن يرحل نهائيًّا ويعطيه الكفيل مستحقاته ولكن الكفيل رفض متعللًا بالعمارة غير مهتم بفرحة ناصر بسعد الذي خاطبه أكثر من مرة قائلًا: يا أبو بداح أنا نفسي أشوف سعد والله تعبت دا رزقني ربنا بيه بعد 15 سنة.

يجيبه أبو بداح دومًا قائلًا: شطب العمارة وبعدين أبيعها.. وبعدها أعطيك إجازة.

لا تزال حكايات سعد تلهيه ويتصبر بها لذا ينتهز الفرصة عندما يجدني وحدي فيسألني ويسأل حمدي عنه وكلما أخبرناه شيئًا يقهقه فرحًا به.

أنظر إلى البحر ويمتلئ صدري بتلك النسائم المنعشة، أنتبه لصوت (عمي أحمد) الجالس بجانبي على شاطئ جدة وهو يقول لي: هيا لكي نذهب حتى نأكل لنسد هذا الجوع.

أنهض متثاقلًا، واضعًا يده على كتفي وهو ما زال يتساءل: وإيه أخبار محمود ابني؟

ما زال يلاحقني بالأسئلة، أتوه في الإجابات.. لحسن حظي أننا قد دخلنا المسجد فصمتنا.

وعلى الرغم من قرب المسجد إلا أنه بادرني بأسئلة تحتاج أيامًا لإجابتها.

يهزني خالي قائلًا: ما لك سارح؟ كُل الحيتان دي مش هتخلي شيء وبالذات عمك أحمد.

أنظر إلى سيقان عمي النحيفة والهزيلة متطلعًا إلى وجهه الذي شق الزمان تضاريسه فيه، يهزني عمي أحمد هو الآخر قائلًا: لكن إيه أخبار الأميرة؟

تقف الكلمة في حنجرتي ألحقها بالماء مستفهمًا: من الأميرة؟

يضحك علاء قائلًا: مرات عمك.. الأميرة ديانا.

يموج الكل في حالة هستيرية من الضحك المختلط بالدموع والسعال المتزايد من عمي أحمد وهو يدس اللقمة في فمه قائلًا: آه لو شفتها وهي صبية وأنا بالجلابية المقلمة.

يقطع حديثه خالي ناصر قائلًا: أنا شفتك يا أحمد كنت أحلى من العمدة (مبروك).

ينظر إلى خالي وهو يطرق برأسه: كنت عمدة، ويغوص في الضحك، أنظر إلى عمي وفي نفسي سؤال يراودني: لماذا لم يذهب إلى المراشدة.. هل سرقته الغربة كما كانت تردد جدتي فمكث خمس سنوات طوال؟

لا أدري ولكن لا أعرف لماذا جاء في ذهني (لود فيكو دي فارثيما) الذي هوى السفر فغادر إيطاليا متجاهًا إلى الاسكندرية ثم القاهرة ثم

بيروت ثم طرابلس قبل أن يرسو في ميناء اللاذقية، ومن هناك سافر إلى دمشق ثم توجه مع قافلة الحج وسمى نفسه (يونس)، وأتى جدة، وكانت وقتها محاطة بمنازل في غاية الجمال والروعة مثل التي في إيطاليا.

وعندما سألوه عن الدافع وراء سفره.. أجاب بكلمة واحدة: إنها المعرفة.

فهل جاءت هذه الأفواج من أجل المعرفة، بعد أن ساروا مدة ثلاثة أيام وهم يصارعون الموج والتعب الذي حل بتلك الأقدام المنتفخة من الجلسة على كرسي الأتوبيس القادم من ضبا إلى جدة؟ هل من أجل جنتهم؟، نعم إنها (الجنة) فزيارة البيت الحرام متعة ما بعدها متعة؛ إذن فليست المعرفة هي من سرقت عمي والآخرين؛ إنها المناسك، لا طبعًا ليست المناسك التي سرقت عمرهم؛ إنها (الجنة) التي حلمت بها!

لا تفارق خيالي صورة عمي (أحمد) عندما كان يجلس على المصطبة الإسمنتية أمام شباك بيت الشيخ (عطية) وهو يقلب في الراديو على صوت أم كلثوم.. (انت عمري)؛ لينطلق الصوت متسللًا إلى وجدان

قلبها وهي تسترق السمع والنظرات من خلف شباكها، أما هو فإنه هائم في ذلك الفضاء الواسع الذي ملأ قلبه نشوة وافتتانًا.

يا له من حبٍّ توج بزواجهما فرزق بليلى ومحمود ولما اشتدت الحياة عليه، آثر على نفسه أن يلبي لهم كل طلباتهم فأخذته الغربة بعيدًا عنهم واشتدت قسوتها فرسمت أخاديد على وجه (رتيبة) زوجة أحمد التي كانت تتطلع لأحلامها فلم تجدها أو تجده معها. فقد كان يرسل (الريالات) التي لم تعبر غير بطونهم وأفواههم، وكسوة تغطي تلك الأجساد الغضة. كانت (رتيبة) تجلس كثيرًا بالليل فوق سطح بيتها المطل على النهر تشاهد أشجار الصفصاف وهي تتمايل يمينًا ويسارًا مصحوبة بأصوات الطيور التي تعشش فوقها دائمًا تشدها شجرة الصفصاف وكأنها ترى نفسها فيها وحيدة فدائمًا غائب أحمد عنها، تراه مرات يخرج من عباب النهر والابتسامة تعلو محياه وعينه يملؤها الأمل، تبتسم مع نزول دمعتين على خديها تنزلقان في حياء، تسأله: لماذا غبت كل هذه الفترة؟!

يرد والابتسامة ما زالت على محياه: لقد أخذتني الحياة عنك.

تبتسم وعينها مختلطة بطعم تلك الدموع المالحة وعينها على هذا الظل الذي تلاشى بعيدًا عنها، تشير إليه وهي تقول له: خد بالك من نفسك يا حبيبي..

تشعر بالبرد، تلف وشاحها حول كتفها وهي تنهض بتثاقل وعيناها ما زالتا تودعان النهر، تنزل على درج السلم متوجهة إلى غرفتها لتفتش في أشيائها ولتشم رائحة ثيابه وهي تحتضن جلبابه ثم تضعه في صندوقها محكمة الإغلاق عليه حتى لا تلحقها الأيادي وتعبث بها فتشتت عنها تلك الرائحة الباقية في ملابسه، تتجه إلى سريرها متلفحة بليلها الثقيل تغلق جفنيها وما زالت الابتسامة مرسومة على وجنتيها.

أتساءل هل تاه أحمد في جنته فلم يجدها، أم لم يبق له غير الذكرى التي يطيب له أن يحدثني عنها؟

فقد حدثني من قبل عن جزيرتهم التي نحتت حبهم، عندما كانوا يركبون زورقهما ضاربين بمجدافيه صفحتي النيل المترقرق لتنعكس أشعة الشمس في تلك المرآة فترسم لوحة خضراء مفعمة بالأمل.

يجلسُ على العشب الأخضر وكأن الجزيرة خطت لهما وحدهما فيداعبها بكلماته التي سحرت فؤادها قائلًا لها: يا أميرتي..

فهذا الجمال الذي خلقه الله، قذف في قلبيهما حبًّا حلالًا صافيًا ليسكن خلدهما فيعيشان فترة كأنهما عصفورين من الجنة محلقين وباسطين جناحيهما في هذه السماء الرحبة.

ولكن عندما أتت السنوات العجاف رحل في مناكبها.

❋ ❋ ❋

(4)

اليوم الجمعة، أستيقظ مبكرًا والكل نيام، أسمع تلك الموسيقى التي تعلن عن نفسها من شخير وسعال وهلوسة من النمر وهو يصرخ قائلًا: الحقوني.. هيقتلني.

من هذا الذي سيقتله؟ ولماذا الهم والخوف يلحقهم حتى في منامهم ويتسرب إلى قلبهم، هل هذا هو العقل الباطن الذي يشمل تسعين بالمائة من عقل الإنسان، فيظهر على هيئة أحلام، فأين الجنة بالنسبة له؟ فهو إنسان يصارع الحياة فيراها تتمثل له عندما يخلد إلى النوم فأين وقت الدعة بالنسبة له؟ ومن هو الذي سيقتله؟.

أجابني خالي باقتضاب: عليه ثأر، وقعت الكلمة على مسامعي كأنها قنبلة تدمر أي شيء يكمل مستطردًا: تراه يخاف من ظله وعند سماع صراخ يمتلئ رعبًا ويولي هاربًا.

ولكن هو في السعودية لماذا الخوف؟ أسأله بحزن عميق يجيبني قائلًا: في السعودية، في العالم كله.. ليست بعيدة عنَّا فنحن دائمًا راحلون نبحث

عن رزق أو عن ثأر أو عن حب أتعب قلوبنا.. الحزن سمة الصعيد والفرحة يملؤها الخوف والترقب من حدوث أي شيء ولذلك بعدها نطلب الستر من ربنا.

هنالك على البحر كنت أراكِ خلف تلك المياه الزرقاء تخبئين رأسكِ مني ولكني وجدتك أيتها المدينة العظيمة الشامخة.

أنظر إلى تلك المتاهة التي تعيش فيها الناس.. فكيف يضحكون ويتضاحكون، الغربة أصعب مما تخيلت، فهذا حمل التراب نحمله في السنين العجاف، فمنهم من أصيب بالسكر أو الضغط، إنها لعنة تصيب عمال الترحيلات ولكنهم مجبرون من أجل سد الأفواه أو حلم ببناء حياة جديدة.

نعم إنها الحياة بحلوها ومرها.. إنها الجنة التي غرقنا من أجلها في عبَّارة السلام وفي سالم إكسبريس وإن تغيرت الأسماء فنحن دائمًا مهلكون، فنحن ملح الأرض العطبة.

بعد صلاة الجمعة يُسارع الكل في تجهيز طعامه، نجلس في غرفتنا بعيدًا عن الضجيج، نفترش الأرض مجتمعين، جالسين في دائرة حول

أطباق الطعام، المكيف يرطب من حالنا، نجد لذة لهذا الطعام الذي نصنعه بأيدينا حيث الدجاج المحمر واللحم والبامية المصنوعة في هذا الإناء الألومونيوم، أصب لهم (المشروب الغازي) في تلك الكاسات البلاستيكية، حيث تترقرق في حلوقهم، يمصمصون بشفاههم باقي الدجاج، وعندما فرغ الكل من الطعام، جاء الشاي ليشعل خالي ناصر سيجارته لينفث الدخان في الهواء وخيالات البلدة تداعبه بعد حديث المهندس طارق عنها. يتحدثون في هدوء حيث تملأ قلوبهم سعادة غامرة. يرحب عمي أحمد بطارق ويسأله عن حاله وحال أهله.. يخبرهم أنهم بخير.

يحضر حسين الكردي النرجيلة، يشد أنفاسها ليتأجج الفحم مقدمًا إياه للمهندس طارق الذي يشكره بدوره لتبدأ هذه الحفلة من الدخان الذي يرسم للكل خيالات أخذت إياهم حيث يريدون. وليقترب كل من السيد عبد العال والنمر مشاركين المهندس طارق نرجيلته متمنيين في قرارة أنفاسهما أن يلحقا بالعمل معه (يا لها من حياة).

يغط السيد عبد العال في نوم عميق وصوت شخيره يتسلل إلى أحمد وها هو بدوره يتقلب يمينًا ويسارًا، ولكن موسيقى السيد عبد العال أبت أن تنقطع لذا لم يجد مفرًّا من أن ينهض وهو يتثاءب بصوت عال كأنه يريد أن يوقظ هذا الرجل العجوز وأصوات شخيره التي بدأ يلحن فيها.

يخرج أحمد وعينه تراقب هذا العجوز، ليقترب منه وهو يقول: يا سيد عبد العال.. يا سيد عبد العال.

لا يجيبه الآخر بل يرتفع صوت شخيره، يتركه أحمد متجهًا إلى المطبخ ليحضر إناء به ماء بارد يقترب من قدميه واضعًا إياهما في هذا الإناء ليتركه ويدخل إلى الحمام فهو متيقن أنه سيأخذ عدة دقائق وبعدها يستيقظ وليكتم ضحكاته مسرعًا.

يشعر السيد عبد العال ببرد شديد في أطرافه يحاول أن يسحب قدميه لينسكب الماء على فراشه، فينهض مفزوعًا بهمهات وأصوات غير مفهومة، أخيرًا يفتح جفنيه ليجد الماء قد لوث فراشه، وعينه غير مصدقة ليطرأ على عقله فكرة أنه قد يكون فعلها ولكن تنتهي هذه الشكوك عند

خروج أحمد من الحمام وضحكاته تنطلق عالية، ليستجمع السيد عبد العال بعضًا من قوته ليجري وراء أحمد الذي يزوغ منه وهو يقهقه ضاحكًا، أخيرًا يمسكه والآخر ما زال يضحك ليقول له: كل مرة تكب المياه لما تخليني أخيب..

انفرجت أسارير أحمد وهو يقول: طيب ما انت تبطل الموسيقى اللي شغالة دي وبعدين المفروض إنك تعرف..

يتركه السيد عبد العال وهو يضحك: يعنى آدينا نايمين ومش عاوز تسمع موسيقى..

طرقات خفيفة على الباب، يتجه أحمد إلى الباب ويسرع السيد عبد العال مهرولًا إلى الداخل حتى يبدل هذه الملابس حاملًا معه غطاءه أيضًا وأحمد ما زالت ضحكاته تتردد في البيت.

انتقل حمدي إلى القصر مع والده ليعمل معه، انبهر حمدي بما رأى من حدائق، وسيارات فارهة لم ير مثلها إلا في التلفاز، جذبته هذه الحياة الجديدة، فهو أول مرة يرى حوض سباحة وأيضًا يشاهد غزالًا وطاووسًا وخيولًا عربية أصيلة، كل شيء كان جديدًا بالنسبة له، لا

وأكثر ما اشتهته نفسه تلك الأطعمة غريبة الشكل وحلوة الطعم وأيضًا هذه الملابس الجديدة، بدأ يعمل حمدي بكل حماسة وحب، على أمل أن يغير الحاج فواز نظرته له بأنه إنسان فاشل، أعجب الحاج فواز تلك الهمة التي بدت على حمدي.

في المطبخ لم يكن هناك عمل للمساعدات ولكن عملهن كان يقتصر على نظافة الغرف والقصر وكان معظمهن إندونيسيات وفلبينيات وكان عهد القصر ألا أحد يتحدث مع المساعدات، إلا إن حمدي اخترق هذا العهد فراودته نفسه أن يحدث زبيدة وهي فتاة إندونيسية ذات الخمسة والعشرين عامًا، بيضاء الوجه، وشعرها كأنه الدجى، ناعم الملمس، مرسل على كتفيها وعيناها ناعستان، ميادة القد، وهي إحدى المساعدات، فبدأ يستغل حمدي عدم ذهاب عمال القصر مبكرًا لذلك كان يتعلل لوالده أنه سيذهب لينظف بعض الأواني المتبقية في المطبخ، وكان يرى الحاج فواز أن هناك تغيير كبير في شخصية حمدي، وطبعًا كان يراه تغييرًا طيبًا، أما بالنسبة لحمدى فهو يعرف جيدًا أن هذا الوقت هو وقت المساعدات اللواتي ينهضن مبكرًا لأعمال النظافة الخاصة بالقصر،

واعتمد على أن بعض المساعدات يدخلن مرات إلى المطبخ ليشربن الماء أو لتجهيز بعض الشطائر السريعة في خفية من أهل القصر؛ لأن المساعدات لهن ما يلزمهن في السكن الذي يسكنَّ فيه ولذلك يمنع منعًا باتًّا أن تذهب إحداهن إلى المطبخ، نعم، إنه مبدأ الالتزام وهنا عامل الالتزام قد يراه البعض ظالمًا ولكن قد تراه صاحبة البيت قاعدة لكل شيء في البيت.

وهي مبادئ تحاول أن تطبقها في بيتها، وكانت تحرص أن تعلم مبادئها للعاملين بالقصر.

ولكن حمدي اخترق تلك المبادئ والقواعد، أما بالنسبة لوالده فكان يراه جهدًا مشكورًا له، سيعجبُ به أهل البيت إن عرفوا أنه يذهب مع وقت ذهاب المساعدات ولأنه على دراية تامة أن هؤلاء المساعدات لن يذهبن إلى المطبخ، هكذا حدثته نفسه!.

بدأ حمدي ينتظر المساعدات حيث كان يراقبهن من شق الباب، بعدما أنهى عمله وهن يعملن في انتظام تام، وعندها لاحظ قدوم إحدى المساعدات إلى المطبخ. جرت في البداية قشعريرة ملأت جسده ولكنه

أسرع عائدًا للوراء ليقف بجانب تلك الأواني في دهاء تام وينشغل بالعمل، ولكن عينيه تراقبان القادم، وعند تحريك مقبض الباب أحس بارتباك لخوفه من اختراق مبدأ صاحبة البيت ولكن طمأنته نفسه بأنه لم يخترق المبدأ بل هي من اخترقت قاعدة ممنوع دخول المطبخ لغير العاملين به، لذلك وقفت باهتة شاحبة اللون وهي تنظر إلى حمدي ثم عادت مهرولة للوراء تاركة الباب مفتوحًا على مصراعيه لتضحك المساعدات عندما رأين حمدي ولكن زبيدة عندما رأت العاملة وهي ترجع مهرولة ضحكت متجهة إلى المطبخ وعيناها تراقبان حمدي قائلة له: صباح الخير..

- صباح الخير.

حمدي يسترق النظرات إليها وهي تبادله النظرات أيضًا ولكن مع استمرار حمدي في اختراق تلك المبادئ والثرثرة معهن بدأت المساعدات يعتدن على حمدي فيتكلمن معه وهو تجرأ ليتكلم معهن وكان يقف كثيرًا مع زبيدة لأنها الأجمل والأصغر سنًّا فيهن، فانجذبت إليه فشغلها عن نفسها حتى إنها عشقته فبدأت الأحاديث السرية تنتقل في جوف الليل،

بعد أن ذهب حمدي ليقابلها في تلك الإنشاءات الجديدة والباقي فيها أعمال الصيانة، ليشاهدهما مرة الحارس ومرة السائق والكل يكتم الخبر خوفًا من أن يفتضح أمر حمدي، ولكنه لم يكتف ذهب ليحدثها عن نفسه عن أشياء كثيرة يحاول أن يكون في نظرها بطلًا، ولكنه يقصد بكل هذا مآرب أخرى.

تحركت نفسه في تلك الليلة عازمًا على أن يُشبع تلك الرغبات فاستكان في ذلك الليل وهي كانت كالقطة الناعسة تفعل ما يطلبه منها حمدي دون أي رفض ولكن اسيتقظت الأنوار الخارجة من المصابيح والمسلطة عليهما لتعريهما أمام صاحب البيت الذي شاهدهما على حين غرة منهما عند خروجه إلى الشرفة وهما يتسللان إلى تلك المنشأة التي تتكون من غرفتين داخل القصر كان يريد أبو راشد أن يبنيهما من أجل استقدام عمالة جديدة، وذهب ليتفحص الخبر وتابعه كل من الحارس والسائق لأنهما في غرفة واحدة وهي بجانب الباب الرئيسي ومن السهل كشف المكان لأنه منفرد عن القصر.

ذهل حمدي واعترته صدمة لأنه كان يظن أن لا أحد سيعرف فلم يرجع وعاد يكرر فعلته. وعندما شاهده أبو راشد صاحب البيت وقف

فوق رأسه والحارس والسائق الصوماليان خلفه، انتفض حمدي وسرت رجفة في جسده والرعب سيطر على زبيدة التي انكمشت على حالها، وتكورت، ساحبة ملابسها وعينها لا تقوى على النظر في وجوههم، أدار أبو راشد ومن تابعه ظهره لكي يرتديا ملابسهما.

نظر إلى الحارس بغيظ شديد، أمره أن يحضر (فواز)، هرول الرجل وقدماه تتخبطان يمينًا ويسارًا وعيناه زائغتان من هول المنظر الذي شاهده. متسائلًا: كيف سيبلغ الخبر إلى فواز الذي كان يغط في نومه؟ استيقظ فواز على وقع الأقدام التي جاءت تضرب الأرض، والطرقات التي تنهش الباب نهشًا مفزعًا وما زال الطرق مستمرًا على الباب، نهض والنوم يغلبه يترنح يمينًا ويسارًا ليفتح الباب.

تقع عيناه على الحارس وهو يطلبه في عجلة من أمره أن يتبعه. انتابه القلق والتعجب فهذه أول مرة ينادي عليه الحارس في هذا الوقت المتأخر من الليل، تسللت الريبة إلى قلبه مهرولًا ومستفسرًا ماذا حدث؟!.. ولكن الحارس لا يجيبه إنما يطالبه بالاستعجال وعيناه تتابعان ذلك الذي يتجه إلى البناية الجديدة وهو في حيرة من أمره. يضيء

الحارس بمصباحه الذي يحمله من بعيد إلى الحاج فواز حتى يتبعه وهو يلوذ بالصمت.

خائف أن يخبره فيسقط مغشيًّا عليه مما ارتكبته تلك الأيادي وبالفعل قد حدث ما كان يخشاه فعندما اقترب الحاج فواز هاله المنظر فلم ينبس ببنت شفه بل سقط مغشيًّا عليه ليهرول إليه الحارس والسائق يتبعهما أبو راشد الذي شعر بالشفقة عليه وليطلق حمدي صيحة على والده الذي وقع ممددًا على الأرض. ليحملوه داخل السيارة التي نقلته إلى المستشفى.

❋ ❋ ❋

(5)

عندما استعاد الحاج فواز وعيه، فتح عينيه وهو ينظر إلى هذا اللفيف الذي يحيط به حول السرير من السائق إلى الحارس إلى "أبو راشد" الذي نظر إليه باستحياء وهو الإنسان الخلوق الذي يشهد له القاصي والداني ليأتي حمدي ليعكر سيرته بعد كل هذه السنين التي قضاها معهم ولذلك انفعل قائلًا: أنا بريء منك ليوم الدين.

وحاول أن ينهض ليضربه ولكن التعب حال دونهما فرجع إلى الوراء والأنفاس تلاحق بعضها وعيناه تزوغان بين "أبو راشد" وابنه، هدَّأ من تلك العاصفة التي اجتاحت الحاج فواز أبو راشد طالبًا منه يهدأ لأن الحل الوحيد هو أن يزوجهما، أطرق برأسه الحاج فواز مشيرًا بالموافقة.

يتدخل الدكتور مستأذنًا منهم بأن يدعوه ليرتاح، يقف حمدي مذلولًا ومكسورًا يسحب بثقل قدميه، يمد بصره إلى والده والحزن يملأ قلبه وكله خزي وعار سيلحقه إلى الأبد.

تمت الزيجة وانتقل حمدي بزبيدة إلى سكن بالإيجار تم تدبيره لهما من قبل "أبو راشد" وهو يبتغي ثواب سترهما في الآخرة.

ما أسرع الأخبار في الغربة حيث وصل الخبر إلى القرية بتلك الفعلة التي قام بها حمدي، وما اقترفته نفسه، لذلك اتصل جعفر على علاء ليتأكد من الخبر الذي وقع عليه كعاصفة اجتاحته، ذهب ليدقق وليستطلع الخبر، جاءته الأنباء بأن الخبر يقين، فعندما يحل الحزن في الغربة كأنه الليل الطويل المعتم المثقل بأحزانه، متى يستقيظ الصباح ويصيح الديك باقتراب الفجر؟!.

وعند أول شعاع لمس الأرض أسرع علاء يهرول إلى المحطة ونحن خلفه، لذلك زاد قلق ناصر بعدما سمع الخبر مني ليخبرني أن أهاتف عمي أحمد لأبلغه بالخبر الذي وقع على رءوسنا كدوي قنبلة.

أحس علاء بأنه المذنب فبسببه جاء حمدي إلى جدة، خائفًا على والده من أثر هذه الصدمة وشعور قاسٍ يتملكه بسبب تلك الفعلة.

هدأ من روعه المهندس طارق البشير وهو يخبره قائلًا: يا علاء ليس لك ذنب..

* * *

بعد أن تزوج حمدي من زبيدة وهو مذلول أمام الجميع لم يتركه أبو راشد إكرامًا لوالده بل وقف بجانبه وأسند له شغل الإنشاءات لكي

يعيش منها هو وزوجته، ظلت الأعين تراقب حمدي، بعضهم بشماتة والبعض الآخر باشمئزاز، لذا انطوى على نفسه وقرر أن يجمع أكبر قدر من المال بأي طريقة حتى يكون سندًا له في الغربة.

اشتد التعب بالحاج فواز وبعدما استقرت الحالة حجز له علاء على طيران الأقصر الدولي وقد تحمل أبو راشد كافة المصاريف.

لم يذق علاء النوم فقد كان متابعًا لحالة والده وغاضبًا مما فعله حمدي وظل على اتصال حتى وصول والده إلى مطار الأقصر.

في مطار الأقصر كانت العائلة كلها في انتظار الحاج فواز في مقدمتهم جعفر وسلطان وعند مشاهدته تهافت الجميع ليطمئن عليه ماضين به إلى المراشدة، كانت عينه ذائغة بين أفراد أسرته فالدموع تحيط بالكل، ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهه حتى يهدأ هذا الجمع وهو يطمئنهم عليه قائلًا: ما فيش شيء.. طالبًا منهم المضي إلى القرية وسط انكسار واضح عليه مما ارتكبه حمدي.

❋ ❋ ❋

(6)

عُدنا إلى البيت الكبير، كان في استقبالنا السيد عبد العال، أما حسين الكردي فجالس على الأرض وأمامه مروحة أصاب أجنحتها الصدأ ولكنه ممسك بالمنظف والإسفنج ليمررها على تلك الأجنحة لعلها تلمع.

يروح ويجيء النمر يغني بتلك الأغنية التي لا يكف عن إعادتها دائمًا "يا بهية، خبريني يا ابويا ع اللي قتل ياسين" وكأن القتل لا يبتعد عنه حتى إذا أراد أن يغني. تتفحص عيناه الوجوه الموجودة في الصالة فحسين ما زال يجمع كل شيء قديم خرب يحاول أن يصلحه لعله ينتفع به يومًا. جلس السيد عبد العال على (الديمنو) هو والحاج أحمد والنرجيلة لا تفارقهم، أما أولاد ساير فما زالوا يقصون على الجالسين حكايتهم أيام عزهم ويستطربون إذا سألهم أحد عن شيء يخصهم، أما ناصر فذهب إلى هاتفه الذي لا يفارق أذنيه، أما علاء فإنه مكلف بإعداد الطعام في وسط هذا الانشغال الدائم بحياتنا.

أنظر إلى هذا الجمع المتعب من الحياة ورغم هذا تعجبهم حياتهم مستمتعين بها إلا النمر غير راضٍ لأن قلبه دائمًا يشعر بالوجع رغم ضحكاته التي ترج في المكان، فهو دائمًا يحرص أن تكون ضحكاته ذات صوت عال حتى يشعر هذا الجمع بأن قلبه أيضًا يمتلئ بالفرح والسعادة حتى أغنيته هذه التي لا يمل أن يكررها مرارًا وتكرارًا وبصوت عال أيضًا ليوهم الكل بأنه سعيد ولكن هيهات؛ فالكل يعرف هذه المحاولات التي يقوم بها النمر ليتخلص من كوابيسه، لذلك فإن خالي ناصر يطلب منه دائمًا أن يغير من أغانيه وهو يقهقه قائلًا: حول لنا على أخبار صباح الخير يا مصر أحسن.

فهو يمتلك السلطة في السكن فلا أحد يستطيع أن يرد عليه أو يناقشه في شيء، فهكذا هي السلطة دائمًا تُغري صاحبها.

طلب مني علاء أن أذهب معه إلى القصر حتى يحضر متعلقات والده الموجودة في سكن العمال بالقصر، بدأنا نجمع في كل حاجاته؛ لأن الحاج فواز قرر أنه سيستقر بالبلدة بعد الفضيحة التي صدرت من حمدي وأثناء خروجنا من السكن جاءت إلينا شابة مطرقة الرأس تسأل

عن حال الحاج فواز فأجبناها أنه بخير ثم نظرت إليَّ لتسأل علاء قائلة: هل هذا أخوك..؟!

فأجابها قائلًا: إنه ابن عمتي.

أحسست وقتها بالخجل وهي تسألني قائلة: حضرتك متعلم؟.

- أنا حاصل على ليسانس آداب قسم تاريخ.

ابتسمت على استحياء وهي تقول: كويس، أومأت برأسي ليستأذن علاء منها وهي تخبره بأن يُبلغ تحيتها إلى والده.

تكررت زيارته إلى القصر لكي يتكفل علاء بإنجاز بعض أعمال البناء بعد طلب "أبو راشد" له وقد كنت معه في كل الأعمال التي قام بها مما أتاح لي فرصة التعرف على رفيدة.

* * *

وكم هذا الحزن ثقيل وكئيب عند موت شخص عزيز علينا تظلمُ الدنيا في أعيننا، أعمانا الجهل على أنه حق ولا مفر منه ولكننا عمال تراحيل نعاني ولا أحد يسمع، يُشار إلينا كقوة تجلب العُملات الصعبة ولا ينظرون أبدًا إلى ما نعانيه من قسوة الأيام أو المشاكل التي تكسونا.

انتفض البيت الكبير كله مهرولًا لهذا الخبر الذي وقع على مسامعهم، حيث نقله علاء بعدما اتصل به المهندس طارق وهو إحدى أقارب السيد عبد العال خبر وفاة الشوادفي الذي سرعان ما غامت الدنيا في عينيه فسقط مغشيًّا عليه، رائحة العطر تزكم أنفه، امتد بصره يراقب تلك الأعين التي تبصره متكئًا على قدم أحمد، يساعده ببطء على النهوض، تنزلق دمعتان على جانبي أنفه، يشرد بعيدًا، تستدركه تلك الرءُوس المنحنية تجاهه فيعود سريعًا محاولًا نصب قامته والشروع في تجيهز أغراضه لكي يستعد للسفر إلى الطائف ويستعد الكل للسفر فتجد ناصر وأحمد يضعون بعض الثياب في شنطة صغيرة، ومن يسحب حذاءه الذي يخزنه لمثل هذه الحوادث أو للمقابلات الهامة، ومن يجري ليحصي ماله الذي سيأخذه معه، وليدس الباقي في خفية من الناس سواء في حفرة داخل الحائط الملاصق للسرير الذي ينامون عليه أو حفرة تحت السرير، ولكن بعد حفظه في كيس داخل كيس حتى لا يصيبه أي ضرر أو تلف قد يصاحب صاحبها في إعياء شديد.

انتهى الكل من تجهيز أنفسهم، وبدأنا ننتظر المهندس طارق خارج البيت، هلت سيارته من مدخل الحارة، طلب مني خالي ناصر أن أوقف حافلة من على الشارع حتى تنقلنا إلى الطائف، أطرقت برأسي مهرولًا إلى الشارع ليلحق بي علاء وهو يحثني على التعجل.

وقفنا في الشارع نراقب السيارات حتى نحصل على حافلة، بدأت الشمس تعلن عن غضبها لنا (يا له من يوم!!) أخيرًا وجدنا حافلة وبعد إلحاح شديد على الأجرة تمت الموافقة أخيرًا على السعر.

تحرك المهندس طارق بسيارته معه ناصر والسيد عبد العال والباقي ركب الحافلة ماضين إلى الطائف، بدأت أجواء الحافلة المنعمة بالمكيف ترطب من حالنا ولتبدأ وصلة من الوعظ عن حال الدنيا وزيفها والكل يستطرب في حالة من الشجن الملائمة لهذه الحالة، بدأ ضوء النهار يتبدد بعدما اختفت خيوطه الذهبية لتسدل على المكان ظلامًا دامسًا، بدأت أحقق وأدقق في هذه الأجساد الماثلة أمامي فوق الجبل لأسأل علاء مستفسرًا فيجيبني قائلًا: بأنها القرود التي تسكن الجبل.

بدأت الأصوات تخفت بمجرد الاقتراب من المكان المنشود وعند النزول من الحافلة وصل صوت ونحيب وتشنج السيد عبد العال إلى

أذننا وبجانبه ناصر يحاول أن يهدئ من روعه، وبمجرد رؤيتنا له انتابتنا حالة من الشجن أثرت فينا حيث بدأ الناس الموجودون في هذا البيت بتقديم واجب العزاء للسيد عبد العال.

جلسنا أمام البيت حيث الوفود القادمة من أنحاء المملكة، وليمتلئ المكان على آخره بهذه الوفود التي تنزلهم الحافلات وسيارات الأجرة، كلهم جاءوا مسرعين عندما وصلهم الخبر.

بدأ ناصر الحديث موجهًا الكلام لعبد الرحمن قائلًا: هل عقدت النية على دفن الجسمان هنا أم في البلدة؟

- سيدفن في البلدة بناء على طلب أهله.

يخرج ناصر خفية مبلغًا من المال، ويدسه في جيب عبدالرحمن قائلًا: دا مبلغ جمعناه من البيت الكبير.

يتململ عبدالرحمن وهو يحاول أن يرجع المال على استحياء، ولكن ناصر حكيم بمثل هذه الأمور فيضغط على يده وهو يقول: يا عبد الرحمن قريبك لينا فيه زيك تمام.

يطأطئ عبد الرحمن رأسه وهو يدس النقود في جيبه، يستعد الجمع كله للذهاب إلى المستشفى لإنهاء الإجراءات.

أخيرًا أنجزنا كل شيء واتجاهنا لنقابل كفيل المتوفي الذي تبرع بمبلغ من المال ليسلمه لعبد الرحمن ومعه جواز السفر وتأشيرة الخروج النهائية.

سافر عبد الرحمن خليفة في هذه الرحلة، حيث المغادرة إلى البلدة والمصاحبة لجثمان الشودافي، حيث أنه أقرب للمتوفى من السيد عبد العال ولذلك وجب عليه تحمل المسئولية وسط وداع من الوفود، يتسم الجميع بالحزن والبكاء وعلى رأسهم السيد عبد العال، وكأنه ينعي نفسه على تلك الغربة التي طالت عليه، وفي الأخير الخوف من أن يلقى نفس الأجل دون أن يرى بناته، يستغفر ربه محاولًا إبعاد وسواس الشيطان الذي لا ينتهي معه ليذهب ليصلي ركعتين لله راجيًا وداعيًا أن يغفر له.

اقترب أحمد وناصر من السيد عبد العال حتى يخففوا من وطأة الحزن الذي امتلكه، حتى مخاوفه وألمه من الغربة التي طالت ولايجد لها حلًّا، وهو يئن ويتوجع أيضًا من هذه الغربة ولكن ألا يوجد أحد يسأل عنا أو حتى عن هؤلاء الذين أتعبتهم الحياة من كدٍّ وتعب؟ أم جعلونا وسيلة

لجلب العملات الصعبة لهم حتى ينعموا هم بخيرها؟ أما نحن فدائمًا مضطهدون من أجل السعي في ركاب لقمة العيش، ولكن يرحني السيد عبد العال وصوت خالي ناصر ناطقين في جملة واحدة (الله معنا) فأشعر بتلك السكينة التي تملأ صدري وتريح عقلي.

مضت الحافلة إلى جدة وهي تنقل هؤلاء الذين يحلمون ويتخيلون حياة أجمل، أنظر من خلف زجاج الحافلة الملاصق لوجهي لأشاهد هذه السلاسل الجبلية التي ترسم صورة طبيعية للمكان لتمتد إلى تلك الأماكن المزروعة بالفاكهة والتي تعود على أهلها بالنفع من حيث بيع ثمارها في جميع ضواحي الطائف لنجد ونحن في طريقنا إلى جدة السيارات محملة بالفاكهة والخضروات سواء للبيع على الطريق أو البيع في الأسواق، تصطدم رأسي بالكرسي الذي أمامي نتيجة توقف الحافلة على أثر صراخ النمر وهو يصيح بصوت خشن: هيقتلني.. هيقتلني.

ليصيب الأجساد المنهكة الرعب والفزع الذي كان سيؤدي بنا إلى حادثة لولا لطف الله علينا في هذا الوقوف المفاجئ.. ليثير سخط الركاب وليتساءل من كان نائمًا عن السبب مثل علاء أو من يستغفر ربه،

أو من يصيبه الهلع مثل حسين الكردي ولتعلو الهمهمات ما بين متذمر وداعٍ، لا يفض هذا اللغط سوى المهندس طارق وناصر الذي يأمر السائق بأن يكمل قيادته بعدما استفهموا عما حدث للنمر، طالبين منه ألا ينام ثانية حتى لا يؤدي بهذا الركب إلى حادثة، تنطلق الحافلة ولكن تصاحبه ثرثرة لا تسكن أبدًا، خصوصًا بعض هذا الصراخ الذي أطلقه النمر، ولتستيقظ تلك الأروح الخائفة من المصير المجهول، والراجية من الله الوصول بالسلامة.

أشعر بهذا الخوف الذي يعيش بداخلهم سواء المتمثل في الكوابيس أو الخوف على لقمة العيش أو على الأهل، كله خوف يتربص بهم ويتسلل إلى وجدانهم سريعًا لنجد أنفسنا أمام البيت، نزل الكل يهرول منهم من أسرع إلى الحمام القابع بجانب الباب الأمامي، ومنهم من أمسك نرجيلته، أما حسين الكردي أسرع إلى المطبخ ليفتش في الثلاجة عن شيء يأكله ليزاحمه النمر فيما يتناوله وهو يأكل بشراهة، يغمزني علاء وهو يشير إليهم وكأننا لا نجد شيئًا في حياتنا غير الطعام أو البحث عن لقمة العيش، تثير هذه الحركات ذاكرة السيد عبد العال وهو يقول: اللي يشوف دول يقول احنا في (الشدة المستنصرية).

يسأله علاء مستفسرًا عن هذه الفترة، فيخبرنا أن مصر قد جف نيلها فاشتد الجوع بأهلها لدرجة أن الناس لم يجدوا شيئًا يأكلونه فأكلوا الدواب، وبعد ذلك اشتدت عليهم المجاعة، فكانوا يأكلون أي شيء يسير في الأرض، وصل الأمر لأكل الإنسان نفسه ويكمل لنا مستطردًا أن هذه الفترة اختلف العلماء في أنها حدثت أو لم تحدث..

أنظر إلى النمر بعدما راح يشارك السيد عبد العال في نرجيلته هو وناصر الأنصاري الذي ينشف تلك القطرات على وجهه ليجلس بجانبهم، أما أحمد فذهب ليطمئن على زوجته وليخبرها بنبأ منية الشوادفي، وعند سماعها الخبر تجزع خوفًا على أحمد قائلة له: متى ستأتي يا أحمد؟

يخبرها أنه سينزل في الوقت القريب حتى يتمم زواج ابنته لجعفر، تفرح بخبر نزوله ليمتلئ صدرها بسعادة غامرة فتطلق زغرودة تجلجل المكان ليضحك أحمد قائلًا: أنت تفرحي تزغردي.. تزعلي تبكي.

تجيبه مستطردة إن شاء الله، ربنا ما يجيب زعل.

يذكرها أحمد بالجزيرة والمركب الذي كان يحمل أحلامهم من صيد السمك إلى الضحكات التي كانت تملأ المكان إلى الزراعة التي أنهكت

الأجساد، تطمئنه بأن الله سيغير الحال إلى الأفضل وتحمد ربها على النعم التي أنعم بها عليها تستريح نفسه، يسألها عن أخبار الحاج فواز الأنصاري، وعن فرحة ابنته بخبر زواجها من جعفر، أسئلة كثيرة تدور بخلده وإجابات لا ينهيها إلا نفاد الرصيد المعبأ لينظر إلى هاتفه الذي علت شاشته الأصفار ليضع الجوال في جيبه ويعود أدراجه إلى البيت.

أترك هذا الضجيج وأذهب إلى النوم، أمضي إلى غرفتي لأفتش في حقيبتي لتتسلل يدي إليها، أحملها لأخطف نظرات سريعة قبل أن يلاحظ أحد هذه الصورة التي أحملها، ترتاح نفسي إليها وإلى تلك الابتسامة المشرقة، أخبئ الصورة في مكانها ولكن عقلي ما زال يحتفظ بكل ملامحها، أتمدد على سريري والخيالات تداعب أفكارى ليغلبني النوم مستسلمًا له.

قرر كل من خالي ناصر وعمي أحمد السفر والمغادرة، يحلم كل واحد فيهما بحلمه فناصر يحلم برؤية سعد وأحمد يحلم بأن يرى أسرته، وليتمم زواج ليلى من جعفر ابن الحاج فواز تاركين لنا أنا وعلاء فراغًا برحليهما.

قمنا بتوصيلهم إلى النقل الجماعي ليغادر الأتوبيس بعد صلاة المغرب إلى ميناء ضباء لتحمل أحلامهم الباخرة وتطوف بهم الخيلات في هذا الفضاء الفضي الرحب.

لم يكن السيد عبد العال لينسى ما حدث له لذا عند دخولنا من فتحة باب البيت نظر إلينا طويلًا وهو ساهم وبعدها أخذته نفسه في البكاء والنحيب، أخذ يهدئ من روعه كل من النمر وحسين الكردي، الكل يحاول أن يهدئه ولكن دون جدوى.

سألت حسين الكردي عن سبب بكائه قال لي إنه من الناجين من عبارة السلام وكلما سافر أحدهم تعاوده الذكريات فتأخذه نفسه إلى البكاء.

عندما أُغرقت السفينة وسقط السيد عبد العال في الماء ساق له القدر برميلًا من البلاسيتك بالكاد أمسك به وطاف به وهو يحمله، وأزاحت المياه له امرأة فتشبثت بالبرميل معه وأخذت المياه تحملهما وتنقلهما إلى أن جاءت موجة قذفت بهما وبرميلهما فلم تجد المرأة إلا السيد عبد العال لتمسك به فغاص بها إلى أسفل وأنهكه تشبثها فلم يجد غير أن يقذفها إلى أسفل لتقتحم المياه أنفاسها فتغوص نحو الأعماق المظلمة، وينجو هو بنفسه بعد أن أمسك في البرميل غير أن الأسماك لم تتركه لتنهش في قدمه التي نزفت كثيرًا ولولا عون الله ووصول الطائرة التي انتشلته لكان في تعداد الموتى.

يراودني سؤال ولكن لماذا عاد ثانيًا بعد كل هذا الرعب يجيبني حسين قائلًا في كلمة واحدة: الفقر.

نعم أوافقه الرأي فالفقر هو من يجبرنا على أن نصارع الموت دائمًا. أحاول أن أخفف من هذا الحزن المسيطر على السيد عبد العال، يهدأ بعد فترة قضاها في البكاء والنحيب ونلوذ نحن إلى مضاجعنا لنريح عقولنا ولتهمد تلك الأفكار العابثة والسيئة التي أتعبتنا منتظرين أن نحيا مع صوت أذان الفجر على أمل جديد يعطينا دافعًا للحياة.

استقر حمدي في حياته الجديدة مع زبيدة وقد شعر بالخزي جراء ما ارتكبه ولكنه قرر أن يكمل طريقه وقد أسند إليه أبو راشد بعض أعمال الإنشاءات وبدأ العمل فعلًا محاولًا أن يحسن من صورته أمام أبو راشد وبالفعل نجح في تحقيق ذلك مما جعل أبو راشد يثق فيه ويعطيه عملًا لحسابه فجلب حمدي عمالًا وحرفيين لإكمال هذا العمل، فبدأت الريالات تجري في يده وبدأت نفسه تتغير ويعتليه كِبر كان مدفونًا، أراد أن يحقق نجاحًا، نعم؛ ولكن طموحه قاده لأن يكره علاء أكثر وبالذات بعدما عُيِّنَ علاء مراقب عمال في شركة العمودي التي يعمل فيها

المهندس طارق البشير، والذي ساعده في أن ينال هذه الوظيفة وبعدها ساعدني أنا أيضًا في أن أعمل مراقبًا في قصر يتم تشييده على البحر في حي الشاطئ، فرحت جدًّا لأني سأجد الوقت لأستمتع بالبحر الذي يمتد إلى الأفق، يا له من أفق تملؤه حكايات الأجداد التي فتحت تلك البلاد، فالأندلس كانت تضحك قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة لتترك للعصور أجمل ما فيها من آثار إسلامية، وكم أعشقك يا جدة.

أتساءل دائمًا هل حدود الوطن العربي تمنع الحب؟!

استيقظت على رنين هاتفي، أمسكت الهاتف لأدقق النظر، تعجبت، عدت أتأكد من الرقم، إنه رقم رفيدة.. لماذا تطلبني في هذا الوقت المتأخر من الليل؟!

أجابت بحشرجة انتابتني: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

أجابتني قائلة: لقد اشتقت لسماع صوتك.

فرحت وتكلمت بصوت هامس: وأنا أيضًا.

ضحكت فتسلل إلى قلبي شعورٌ غريب وكأنها تملكني بصوتها العذب وحكايتها التي تجعلني أضحك، تخبرني الكثير من النكات،

تطربني بصوتها الجميل، نعم صوتها جميل، أهيم بها عشقًا، تكلمني عن الغد، فيتراءى لنا المستقبل ماذا سنفعل فيه، أكلمها عن الحاضر وواقعه، ترفض هذا الوقع فأحلامها جميلة مثلها.

تعمد حمدي أن يمر بسيارته الجديدة جيب شيروكي أمام البيت الكبير دون أن يُلقي السلام علينا، إنما أشار لحسين الكردي الذي ذهب يهرول إليه ويقول: نعم يا باشا.

نظر إلينا بعين ماكرة وهو يتفق مع حسين على بعض الأعمال التي سينجزها له، يومئ حسين برأسه وهو يقول: حاضر يا باشا.

تكررت زيارات حمدي العابرة والتي يقصد بها غيظ علاء ويلاحقني أنا أيضًا بذلك الغيظ، ولكن لماذا يتغير الإنسان ويتلون بأشكال عدة؟ لا أعرف.

ولكنه تعمد هذه المرة أن يصطحب معه زبيدة ويجعلها تحاسب حسين الكردي وتعطيه ما تبقى من حسابه، وذلك في محاولة واضحة للاستفزاز، ليقهقه النمر قائلًا: كويس، النسوان ركبتنا عربيات.

يكتم علاء غيظه منسحبًا وهو يغلق باب غرفته بقوة حتى لا يتشاجر مع النمر فقد أثار حفيظته، وقد تشاجر معه أكثر من مرة ولكن النمر يطير فرحًا إذا أمسك نقطة ضعف على أحد، يتدخل السيد عبد العال دائمًا ليعنف النمر ولكن النمر اعتاد اللغط لذلك نصح السيد عبد العال علاء بأن يتجنب النمر منعًا للمشاكل.

كان من الغريب أن تجد النمر في الصباح يصحبه حسين الكردي، يصعدان سيارة حمدي لكي يعملا معه بعد كل هذا الهمز واللمز فعرف علاء وأيقن أن حمدي هو من أمر النمر بأن يفعل هذه الحركات.

فعندما يحل الليل يجتمع الكل في الصالة الواسعة يتسامرون ويشاهدون التلفاز ويتابعون ما يحدث في مصر من مظاهرات تجتاح القاهرة وتتصاعد وتيرتها في السويس فنتعجب من هذه الأحداث.

❋ ❋ ❋

(7)

أخبر المهندس طارق البشير علاء بأنه يريد أن يتقدم لأخته إسراء بعدما شاهد منها أدبًا جمًّا ومما شده أيضًا أنها متعلمة، فهي خريجة كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية وهو يعرفها عندما كان يزور علاء في بيته، ابتهج علاء بطلب صديقه طارق فهو إنسان خلوق ومن عائلة ذات سمعة طيبة؛ لذا طلب منه مهلة ليحدث والده وليأخذ رأي إسراء.

عرف عندما سمع حمدي بمكالمات رفيدة لي فاغتاظ غيظًا شديدًا ولذلك زف الخبر إلى أبو راشد الذي غضب من ابنته التي تعرفت على قريب أحد العمال عنده، حاولت رفيدة أن تشرح لوالدها ولكن عند الغضب يصعب للعقل أن يستوعب أي شيء لذلك أجلت مناقشته لوقت آخر..

اتصلت رفيدة لتبث لي خبر حمدي الذي أوغل به صدر والدها وهي تبكي فطلبت منها أن أقابل والدها حتى أتقدم لخطبتها.. ابتهجت

للخبر، ولكن طلبت مني مهلة حتى تمهد لوالدها لأن الغضب يتملكه فوافقت منتظرًا على أحر من الجمر لرد والدها.

اتصل علاء بوالده الحاج فواز ليخبره بطلب طارق الذي رحب بدوره ولكنه طلب مهلة حتى يأخذ رأي إسراء.

انتظر طارق وهو يتلهف في شوق على رد إسراء التي فرحت بطلب طارق لها وتم الاتفاق على أن ينزل طارق إجازة ويأتي والده ليتقدم لخطبتها.

وكالعادة لا يجعلنا النمر نهنأ بنوم فقد راوده نفس الكابوس فأخذ يصرخ وهو يردد: هيقتلني.. قُمت بتثاقل نحو النمر الذي استيقظ بعد فترة من التقلب وهو ممسك برقبته تنفس الصعداء وهو يتمتم قائلًا: الحمد لله.. الحمد لله.

أحضرت له الماء، شرب ونهض متجهًا إلى الصالة حتى ينفث من غضبه في نرجيلته مع السيد عبد العال.

اجتمع الكل على الغداء فنادرًا ما يجتمع الكل على الغداء وليقدم التهاني لطارق وعلاء للخطبة التي أعلن طارق أنه سينزل الأسبوع القادم ليتممها.

أخبرتنى رفيدة بأن أذهب لأقابل والداها، وجدته في انتظاري، قابلني بوجه بشوش وصدر رحب مما جعلني أفرح بهذه المقابلة، جاءني الخدم ليعرف ماذا أشرب، طلبت عصير ليمون وبعدها تحدث الوالد على مهل قائلًا: سمعت من بنتي أنك تريد الارتباط بها.

لم أستطع أن أجيب، أطرقت برأسي بينما جاء الخادم مقدمًا العصير فأكمل مستطردًا: ممكن تخبرني هل تستطيع أن تجعلها تعيش في هذا المستوى؟.

وقف العصير في حنجرتي فدفعته مرة واحدة لأنطق قائلًا: سأفعل ما بوسعي لأجعلها سعيدة.

صمت برهة ثم قال: السعادة ستتبدد في خضم المشاكل التي ستقابلكما.

سألته مستفسرًا: إذن لماذا دعوتني؟

أجابني: حتى لا تجعل ابنتي تتعلق بك أكثر وتبعدها عنك وفكر إن كانت أختك ماذا ستفعل؟!

انسحبت وأنا في صميم نفسي أوافقه الرأي، وعدته بأني سأفعل ما بوسعي..

وصل إلينا خبر إلقاء القبض على حمدي فواز وهو يحمل في سيارته مخدرات وقضت المحمكة بخمس سنوات عليه.

حزن علاء على حمدي متسائلًا على زبيدة التي عرف أنها أخذت ابنها وسافرت إلى إندونسيا تاركة حمدي.. زار علاء حمدي ليطمئن عليه ولكن حمدي رفض أن يقابله ظنًّا منه أن علاء جاء ليتشفى فيه.

طمأن علاء والده الحاج فواز على حمدي وأخبره أنه بخير..

واستطرد قائلًا: لكن يا والدي زبيدة سافرت إلى إندونسيا..

صمت الحاج فواز قليلًا ثم تكلم بصوت مبحوح: يا ولدي إذا تراقص الرجال تهاوت الأوطان.. ولكل بيت عِلة وعلتي حمدي..

اشتعلت المظاهرات وازداد فتيلها لتعم مصر كلها وليتنحى مبارك عن الحكم، جلسنا مذهولين بعدما رفضنا أن نخرج للعمل، هاج وماج النمر قائلًا: خربت مصر..

يوافقه الرأي حسين الكردي قائلين في صوت واحد: فعلًا خربت مصر..

ما زال الإعلامي اللامع في التلفاز يردد: خربت مصر..

تنهمر دموع حسين الكردي قائلًا: يا بلادي..أنا ما عرفتش غيرك.

يتفاجئون للفرحة التي اعتلتنا أنا وعلاء وطارق البشير، ونحن نحاول أن نفهمهم أنه خير، ولكنهم صموا آذانهم قائلين في صوت واحد: انتو مغيبين..

وما زال المذيع يردد: دول مغيبين..

جاء صوت السيد عبد العال من خلف الباب وهو يدير مفتاحه قائلًا: تحيا مصر..

ظلوا ساهمين ليتساءل النمر: ما سبب فرحتك..

أمسك السيد عبد العال الريموت ليغير على محطة أخرى هم نفس الأشخاص الذين كانوا يمدحون مبارك، هم أنفسهم من يذمونه، وليعرفوا الناس عن السرقات التي فعلها.. يستطرد السيد عبد العال قائلًا: إذا تغيرت الوجوه كالأفاعي وتلونت ولم يحاسبوا ضاعت الأمم.. لا بد من محاسبة المنتفعين والمتلونيين لا بد أن يحاسبوا.. نعم يحاسبوا.. على عمرنا الذي انقضى في الغربة، على الرعب الذي ملأ صدورنا، لما

رأيناه من غرق العبارة، وحرق القطار، وانفجار الكنائس، لا بد أن يحاسبوا حتى نرتاح وتستكين الأنفس وتهدأ، العدل.. العدل.

تعودنا على مجالسة السيد عبد العال فرغم أنه لم يحصل سوى على الابتدائية إلا أنه مثقف بمعنى الكلمة، فالمدرسة في عهده كانت ملاذًا لمن يبحث عن العلم وهم كانوا عطشى لذلك العلم إلا إن الفقر هو من يبدد هذه الأحلام فيجعلنا شغوفين بالعلم، ولكنه مجرد شغف فالأهم أن نبحث على ما يسد تلك الأفواه ولأجل ذلك لم يكمل تعليمه ولكن هذا لم يمنعه من أن يقرأ كل ما تقع عيناه عليه.

كنت دائمًا متيقنًا أن فكر هذا الرجل أفضل من متعلمين كُثر وأن الظروف لو سنحت له لكان ذا شأن فسألناه عن تلك الكتب التي يخفيها تحت سريره في حقيبته، هل اشتراها؟ يقهقه قائلًا: مش أنا اللي يشتري الكتب بس بالاقيهم في مدراس كنا بنرممها وبيوت قديمة كنا بنزيلها وعلشان اللي معايا ما يعرفوش قيمة الكتب فكانوا بيضحكوا عليَّ، كمان

بيجيبوا ليَّ المزيد منها لحد ما قرأت للكُتاب الأجانب زي ماركيز وأجاثا كريستي..

وقعت أسماء ماركيز وأجاثا كريستي كأننا لم نقرأ..

ما هذا الرجل الذي قرأ لكل هؤلاء الكُتاب؟، رغم هذا الشقاء والكد والتعب الذي يعاني منه، سواء المرض أو التعب من تلك الأعمال الشاقة التي يعاني منها..

أقدم أنا وعلاء الحلويات و"البيبسي" لقاطني البيت الكبير من أجل زواج جعفر بليلى ابنة عمي.

في الأفراح تعم القرية وتشمل البيت الكبير حيث يهنئون أملًا في زجاجة "بيبسي" أو قطعة حلوى، نعم إنها فرحة مشترطة بالنعيم الذي سيأتي إليهم.

يترقب حسين الكردي الحلوى بنشوة وهو يحاول أن يقتنص بعضًا من الحلوى لكي يخفيها في بعض الجيوب التي صنعها في عباءته لمثل هذه الفرص، أما بالنسبة للسيد عبد العال فحمل حلواه وعلبة "ميرندا"

برتقال، فكان سطح البناية القديمة هي الملجأ له والإحساس بالفرح والطمأنينة التي امتلكته.

حاولت رفيدة أن تتصل بي كثيرًا ولكني لم أجبها بل حاولت الفرار منها وتجنبت أن ألتقيها ولكن شاءت الأقدار أن جاءنى أبو راشد إلى بيته الذي نسكن فيه وكان أول مرة تطأ قدميه هذه الحارة الشعبية، ولذلك منهم من تعرف عليه فرحب به كثيرًا وهو متعجب من مجيئه مثل علاء والنمر والسيد عبد العال ومنهم من تساءل عن هذه الشخصية التي هرول إليها هؤلاء مثل حسين الكردي شاكرًا ترحيبهم ولكنه طلب أن يراني على استحياء، تعجب الكل، والسؤال يلح عليهم ويراودهم لماذا يريد حسن..؟

أجابه السيد عبد العال قائلًا: بأنه سافر إلى البلدة..

فطلب منه رقم الهاتف فأعطاه له علاء عائدًا أدراجه وسط تعجب ودهشة تحوم حول الجميع.

يرن هاتفي، أستطلع الرقم في بغتة اجتاحتني لأجد "أبو راشد" يسلم ويطمئن علي، سيطرت على عقلى أفكار كثيرة تراود خاطري لماذا يريدني.. لقد نفذت كل ما أراد.. لم يوقف كل هذا سوى حديثه إليَّ قائلًا: سامحني يا حسن لقد أخطأت.. لم أستوعب الكلمات، تكلمت قائلًا: ماذا حدث يا أبو راشد فأنا التزمت بكلمتي معك، ولم أهاتف رفيدة ولم أذهب إلى القصر..

بدا على صوته نبرة من الحزن وهو يقول: أعرف جيدًا يا حسن أنك لم تفعل والتزمت بعهدك لي.. ولكن.

توقف فجأة عن الكلام فتكلمت قائلًا: ماذا حدث يا "أبو راشد"..

استطرد قائلًا: رفيدة أصابها المرض وليس على لسانها سوى اسمك وأريد أن أعرف هل أنت ما زالت تريد رفيدة؟!

❋ ❋ ❋

(8)

عند قدوم الحاج فواز إلى جدة ذهب لزيارة حمدي الذي بكى كثيرًا عندما وقعت عيناه على والده، أشفق عليه الحاج فواز رغم الغضب الذي كان يتملكه من أفعال حمدي إلا أن دموعه حركت عاطفته قال له: لماذا يا ولدي؟

أجابه حمدي وما زالت عيناه تقطران بدموع قائلًا: سامحني يا والدي..

- سامحتك يا ولدي.. ربنا يهديك ويكفي ما حدث لك حتى تتعلم أن القوة الحقيقية في الحياة هي أن تحب الناس وتودهم..

- تعلمت يا والدي.. عرفت أني أتعبتكم كثيرًا..

- ربنا معاك يا ابني..

احتضنه الحاج فواز وهو يمسح دموعه ليقبل حمدي يداه ثم ينحني ليقبل قدميه، يرفعه الحاج فواز من على الأرض داعيًا له بأن يفك الله سجنه.

قرر علاء أن يسافر إلى مصر حتى يختار عروسه فهل هذا هو الزواج التقليدي الذي يغيب عنه الحب؟ لا يعرف، كل ما يعرفه أنه سيبحث عن تلك التي أوصانا بها الرسول الكريم وهي ذات الدين..

ولذلك فهو يبحث عن ذات الدين وفي عقله أنها تتمثل فقط في كل بنت ذات نقاب، وأيضًا كان يبحث عن خريجة الجامعة التي تنير بعقلها فؤاده.

يلمح إسراء تقف على درج بيتهم وهي في انتظاره ولكنها لا تقوى على الخروج إليه من إثر الحمل، يذهب مشتاقًا ومتعجبًا لتلك التغيرات التي طرأت على وجهها من الحمل الذي بدا له منتفخًا، احتضنها وهو يقول لها: لقد اشتقت لك يا أختي..

تبادره الحديث: وأنت أكتر..

- هتسميه إيه؟
- قصدك هتسميها إيه..
- إن شاء الله تسبيح..
- جميل الاسم..

يدخل من الباب ليسلم على والدته سنية خليل، وعلى أخيه جعفر، وزوجة والده حمدية عمران، تتقدم ليلى زوجة جعفر من المطبخ لتسلم عليه..

بعد عدة أيام قضاها علاء في البيت ليستريح وليستمتع بأسرته بعد هذه الرحلة الطويلة التي قضاها في الغربة والتي بلغت مدتها عشرة أعوام جعلته يدقق النظر ليعرف من يجيء يسلم عليه فكل الملامح تاهت عنه، فهولاء أولاد عمومته لم يتعرف على أحد فيهم، فالأسماء موجودة في ذهنه ولكن أشكال الوجوه تضطرب وتختلف عما تحمله ذاكرته.

فهذا محمود ابن عمي أحمد يقول عليه محمد! فما أغربك أيتها الحياة تأخذي أجمل ذكرانا لتجيء بتخاريف الشيب ونحن في أريج شبابنا، لكن بعد هذه الارتباكات التي حققتها السنين العجاف، وبعد تصحيح من الأهالي لهذه الملامح التي يراها بدأ يدرك وجوههم الحقيقة وليست التي أصبحت معلقة منذ رحيله في ذاكرته..

يذهب ليشاهد بيته الذي بناه من كفاح تلك الأيام الثقال والذي اقترح أن يبنيه في تلك الأراضي التي في حضن الجبل بعيدًا عن ضفاف النيل لأنها أرخص في السعر وبالذات بعدما وصلت إليها خدمات المرافق العامة التي أنارت ذلك الجبل القابع على حدود الظهير الصحرواي للمراشدة، فأضفت بهجة على ذلك الجبل الشامخ بألوانه الفضية اللامعة، لتستريح تلك الروح المتعبة والباحثة عن راحة تملأ النفوس وتريح العقول من ضجيج الازدحام القابع على ضفاف النيل لترى علاء ناظرًا لتلك البيوت التي تناثرت بجانب بيته القائم وهذا الهدوء الذي يخيم على المكان؛ لذا بدأ علاء البحث عن عروسه، مقترحين عليه العديد من البنات ولكنه لم يجد مبتغاه..

يريد النقاب، وأيضًا التعليم وبعضًا من الجمال النسبي، ولعل كلمة النسبي تختلف عنده، لعله يبحث إذن عن الحب، أم التدين؟، لعله الحب، فهل هذا ممكن بعد كل هذه الغربة التي قضاها، بعيدًا عن تلك الوجوه النضرة التي تتفتح وبمجرد أن تسطع بضوئها يتهافت عليها الشباب، آملين أن يحققوا حلمهم وهو الحصول على زوجة يطيب لها

الخاطر، ولكن الآن الفرق كبير في السن، فهو يبلغ السابعة والثلاثين وهو يحاول أن يجد من تكون في الخامسة والعشرين أو دونها بقليل، ولكن هو عن أي شيء يبحث؟ النقاب؟، الحب؟، العمر؟، أشياء كثيرة تضطرب بداخله وتتآكل والسبب الغربة، ولكنه واثق من أن الله لن يضيع تعبه سدى، يُصبره والده الحاج فواز قائلًا: ستجد يا ولدي من تبحث عنها ولكنها مسألة وقت..

نعم وقت، ولكنه لا يملك الوقت، فإجازته تتآكل يومًا بعد يوم، ما زال يبحث ولكن في قرانا الفتيات الجامعيات يتدللن، لأن الجامعة تفتنهم وتغويهم بأنها ستسكن في فيلا وليس بيتًا في الجبل.

يقترح عليه محمود ابن عمي أحمد تلك التي ينشدها، فهي منتقبة، خريجة جامعة، وقريبة خالته التي تسكن في كوم أمبو وتسكن أيضًا في تلك الصحراء المترامية الأطراف والتي اكتست خضرة بعدما أفنى فيها أهلنا عمرهم لتنمو وتمتد في هذه الصحراء ولكنهم يصابون بالحيرة في كثير من الأحيان إذ أن الدولة المتمثلة في تلك الحكومة التي تنعم في القاهرة بكل وسائل الرفاهية تنكد حياتهم من اقتطاع بعض الأراضي في

وصف أنها إصلاح أو أوقاف، فأين كانوا هؤلاء عندما حرص أهلنا في القرى أن يطيبوا الأرض بأن يجعلوها صالحة للزراعة؟ فحملوا سمادهم المتمثل في روث البهائم إلى تلك الأراضي، ولكنها ضريبة لا بد أن يدفعها قاطني أرض الطغاة..

اسمها رنا، عمرها خمسة وعشرون عامًا، خريجة كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزي وتمتلك بعضًا من الجمال..

جاءت على استحياء وعيناها تصاحبان الأرض، تقدم لهم العصير في حضرة والدها، كانوا جلوسًا على حصيرة مفروشة تحت شجرة الصفصاف، وعلى يمين الحاج الحسيني عاشور يجلس عمها عبد السميع عاشور، الأرض مفروشة أمامهم بمحصول القمح، وجاءت نسمة هواء تداعب وجوههم، لتلطف من حالنا وبصوتٍ هادئ تكلم عمها قائلًا وهو يبتسم لعلاء: هو انت يا ابني معاك شقة؟.

أجاب علاء يبادله الابتسامة: نعم يا عم الحسيني..

استأذن محمود منفردًا بالحاج الحسيني ليخبره أن علاء يريد أن يتحدث مع رنا وهي الرؤية الشرعية الأولى له.. الحاج الحسيني رجل

حكيم واع ولذلك ابتسم وهو يومئ برأسه ليتجه إلى بيته القريب منا وهو مبنيٌّ بالطوب اللبن وأمامه ما زالت ثلاجة الفقير المكسوة بالقماش المبلل بالماء حتى يحفظ درجة البرودة ومثبتة على بعض من الطوب الذي بني خصصيًا لها، يرفع محمود غطاء الزير ليرتوي منه فهو عنده أفضل من الثلاجة، يحمل الماء إلى علاء وعيناه تغمزان له بأنه بلغ الرسالة دون أن يفهم عبد السميع أي شيء.

استأذن الحاج الحسيني من أخيه عبد السميع لأنه يريد علاء، أطرق عبد السميع رأسه بالموافقة لأنه فهم كل شيء قائلًا لعلاء: اتفضل.

نهض علاء على استحياء وراء الحاج الحسيني داخلًا البيت ليستقر في غرفة في أول البيت جالسًا على سرير من الجريد مفروشًا بكليم وخلفه بعض الوسائد المزينة، وفي وسط الغرفة قفص من الجريد مربوطًا بحبل من الليف محفوظًا به الخبز المغطى ببعض القماش الخفيف والذي يظهره في احترام تام وهو يتربع القفص دون خوف من أن تعبث به أيدي الأطفال الصغار، ما زالت عين علاء تتفحص الغرفة، يدخل الحاج

الحسيني من فتحة الباب وخلفه رنا وهي تطأ رأسها إلى الأرض وقد اكتست وجنتيها بالاحمرار.

تمشي على استحياء، تجلس على مهل وعيناها ما زالتا معلقة بالأرض، قطع هذا الصمت الحاج الحسيني قائلًا: شوف يا أستاذ علاء رنا عندها كام سؤال ليك..

راحت عينا علاء تتلطعان إلى رنا وهو مشتاق لسماع صوتها الذي أطربه عندما تكلمت بابتسامة تعلو محياها قائلة: أستاذ علاء حضرتك خريج إيه؟

رد علاء وعيناه تتفحصان رنا قائلًا: أنا خريج معهد فني تجاري..

استطردت وما زالت الابتسامة مرسومة على وجنتيها: حضرتك عندك كم سنة؟

أجاب علاء: 37 سنة.

اختتمت رنا أسئلتها بنظرة استحياء مصاحبة للأرض وهي تقول لوالدها: بس يا والدي، لا توجد أي أسئلة..

نظر الحاج حسينى لعلاء وهو يحدثه إذا ما كان بداخله سؤال لابنته رنا، ولكن علاء اكتفى بسماع صوتها محددًا موعدًا لزيارته مصطحبًا معه والده الحاج فواز ووالدته سنية خليل وبعض أفراد عائلته.

❋ ❋ ❋

(9)

ما زالت الوفود تزور البيت الكبير ولكن، ماذا حدث؟! لكي يأتي كل من يعرف أهل البيت من أقاربنا في أسيوط وسوهاج وأسوان وبعض الأصدقاء الذين تعرفنا عليهم في الغربة ليأتي الكل حاملًا فاكهة وطعامًا على مدار الأسبوع، كل يوم والبيت لا يخلو من الزيارات فجدة مليئة بالمصريين وعند حدوث أي مشكلة يهرول الكل من جميع أنحاء جدة ليزورَنا.

الكل مستلقٍ على الأسرَّة هامدين والسخونة تسري في جميع الأجساد، السيد عبد العال ينقل نظراته ما بين تلك الوفود القادمة وبعض من أقاربه في أسوان، وكأنه يحملهم ذنب هذا الإعياء الذي تعرض له قاطني البيت ولكن ما ذنبهم؟، لا ذنب لهم فيما حدث فحمى الضنك التي تعرضوا لها كانت نتيجة عدوى أيضًا انتقلت إليهم ومن ثم سرت في تلك الأجساد واستسلموا لهذا المرض لما له من تأثير وإنهاك في الأبدان مصطحبًا بسخونة ودوار يصيبهم ليجعلهم يترنحوا يمينًا

ويسارًا عند محاولتهم الوصول للحمام القابع بجانب الباب الخارجي وتدريجيًّا انتقلت العدوى منهم إلى السيد عبد العال ولحقت بالنمر وحسين الكردي والبقية فردًا فردًا ليصبح الكل ملقى على الأسرَّة غير قادرين على تجهيز الطعام أو غسيل ملابسهم فيأتي الناس لزيارتهم مصريين وسعودين ممن يعملون لديهم ولينتقل سكان البيت كلهم في مشهد مضحك بعض الشيء لما يردده السيد عبد العال قاصدًا المزاح وهو يقول: والله وقعت يا جمل.. والسعال يلاحقه وحشرجة تنتابه محاولًا إكمال جملته وهو يشير على نفسه قائلًا: يا جمل..

ولكن رغم كل هذا، كان المشهد المهيب عند خروج الكل محملين إلى سيارة الإسعاف التي ستنقلهم إلى مستشفى جدة الأهلي التخصصي.

وبعد أسبوع من الأدوية يعود النشاط إليهم متحاملين على أنفسهم وتاركين هذه المستشفى ليلحقوا ركب الشقاء؛ لأن الأفواه مفتوحة ومنتظرة من يسدها حتى تستريح وتخلد للنوم.

بعد أن وصلوا البيت هرول كلٌّ من السيد عبد العال والنمر إلى نرجيلتهم منكبين عليها، فمنهم من يغسلها بعناية، ومن يشعل الفحم

وآخر يبحث عن "المعسل" المخزن في حقيبته خوفًا من أن تلاحقه الأيدي المتسللة، بدأ النشاط يدب في الأجساد وكأنهم عادوا للحياة بعد فترة نوم طويلة قضوها في المستشفى.

يبدأ السيد عبد العال الحديث قائلًا: قوم يا عم حسن إنت مش بتدخن اشتري لينا اتنين كيلو لحمة بالخضار بتاعهم.

أومئ برأسي وأنا أنهض متثاقلًا لأعبر من الباب متجهًا إلى محل الجزارة القريب من البيت.

ينفث هذا الدخان الذي يرسم له خيالات على أغنية (انت عمري) لأم كلثوم التي يسرح معها تاركًا هذا التعب الذي حل بجسده والذي ظن أنه يصارع أنفاسه الأخيرة

نزل النمر من على الحائط بعدما عرف الوارد من الحديث، ولذلك هرول لينقل الخبر إلى من يقابله وازداد فرحًا عندما وجد حسين الكردي جالسًا في الصالة مستمتعًا بهذه الأجواء الجميلة، وفي يده كوب من الشاي الثقيل الذي يحب أن يشربه، جلس بجانبه وهو ينقل له الخبر وحسين يقهقه لما اغتنمه من خبر وليجزي النمر بهذه الوشاية بأن يصنع

له شايًا بالنعاع الذي اشتراه خصيصًا لهذه المفاجآت التي يقوم بنشرها النمر.

لا تسكت الألسنة فالأيام في الغربة طويلة، فيتسلون بها بفضح المكشوف والنكات على الجميع ولذلك تتغير الوجوه إلى ألوان كثيرة دون أن ننتبه. يأتيه صوت والدته والنار تلتهم جسدها وهي تطلب العون والنجدة وهزيم النيران يعلو شيئًا فشيئًا كأنه أشباح تريد أن تبتلعها فتعلو تلك الأطياف لتصل إلى كبد السماء.. يصرخ ليلحق بها ولينقذها، وفي كل مرة لا يجد سوى تلك العيون المحملقة على وجهه المتصبب عرقًا محاولين أن يوقظوه من تلك الكوابيس، يا لها من حياة!

فالنمر يكد ويتعب بالنهار وأيضًا بالليل من ذلك الخوف الذي يسري في قلبه ويملؤه بالوسواس والشكوك من هذا الموت الذي يراه دائمًا في أحلامه ورغم كل ذلك فعائلته ما زالت تنتظر الريالات التي لاتكفي.. رغم أجرة البيت الذي يملكه في القاهرة إلا أنه لا يكفي.. دائمًا زوجته تطالبه بالمزيد فالأولاد أفواههم لا تتوقف عن المضغ والأعين لا تراقب إلا كل جديد من ملبس أو مأكل، أما هو فقد خطت

الخيوط البيضاء رأسه لترسم جدار الزمان الذي بدأ يسيطر عليه. فيحاول الهروب من هذه المعاناة بتلصص على أفراد البيت لمعرفة أي شيء، فعندما وقع على مسامعه ضجر السيد عبد العال من الغربة فبدأ يرميه بكلماته المواربة ليفهم السيد عبد العال إشارته وقصده فيلوذ بالصمت تاركًا لهما العنان وليزيد النمر من ضحكاته بعدما حقق انتصارًا على السيد عبد العال لينهض حسين صانعًا له الشاي بالنعناع حتى يرضي غروره وليتجنب شره، وحتى لا يذكره بأصله بعدما نجح في كسب ود النمر له (إنها الحياة بحلوها ومرها تغدق علينا متى أرادت، وتتعبنا متى يحلو لها فنلوذ بالصبر لأنه ملجؤنا).

أصبح البيت الكبير مقسمًا، فالسطح من نصيب السيد عبد العال ومن يريد أن يتسامر معه، أما الغرفة التي يضعون فيها الأشياء القادمة من البلدة فهذه يتسلل حسين الكردي خلسة إليها دون أن ينتبه أحد له، والنمر في بعض الأحيان، أما خارج البيت فخلا من أحدهم ولذلك عم المكان بعض الهدوء النسبي الذي لا يزداد إلا عند قدوم الحج أو العمرة لأننا ننتظر تلك الوفود القادمة من أنحاء المملكة حتى نقدم لهم واجب

الضيافة والتي يشعر حسين الكردي بغصة في أثنائه ولكنه يكتمها حتى لا يعايره أحد ببخله أو يذكره بأصله فيلوذ بالصمت.

تمت الخِطبة لعلاء بحضور عائلته على أن يتم الزواج بعد شهر، كانت رنا وقتها تحاول أن تجد طريقة حتى تتخلص من هذه الخِطبة ولكنها لم تستطع أن ترفض لأن والدها حازم، وعندما يعطي كلمة لا يرجع فيها، ولكن هناك حبيب آخر يسكن قلبها وتهيم به عِشقًا، فكيف تتخلص من هذا الذي اقتحم حياتها ولأنها لم تستطِع أن ترفضه لأن الكل سيسأل عن سبب الرفض ولأن هذا الحبيب لم يتقدم؛ لأنه يدرس معها في الجامعة ولا يستطيع في الوقت الحالي أن يخطب، فطلب منها الانتظار والانتظار في الصعيد معناها العنوسة ولكنها لم تفهم خوف والدها بل اعتبرته تدخلًا واقتحامًا لحبها القابع في الجامعة، ولكن حبها الحقيقي يسكن في المدينة في شقة صغيرة يمتلكها والده بعدما أفنى عمره في مصلحة البريد ليفوز بهذه الشقة بعدما كان يسكن بالإيجار ولكنها في موقع متميز فهي تطل على النيل وقريبة من ذلك "الكوبري" الذي يُوصِل الشرق بالغرب وتطل أيضًا على الكورنيش، يا لها من حياة!

كلمها عن حياته والرفاهية التي ينعم بها، فعشقته خصوصًا بعدما سئمت بيتها المبني بالطوب اللبن، ولكن لماذا غفلت عن تلك الأسرة التي تسكن فيه؟، فكيف يعدها بحلم هو ذاته لا يستطيع أن ينعم به؟ لأن هذا السكن مزدحم بأهله، فوالده ووالدته في غرفة، وأخته في غرفة، وهو وأخيه في غرفة، إذن فهو يعلم جيدًا أنه لا مكان لهما، ولكنه اكتفى بالخداع، واقتنعت هي بالكذبة وصدقته ولكن لماذا؟ لعلنا في بعض الأحيان نعشق الكذب؛ لأنه الأقرب إلى قلبنا.

بدأت رنا مع أختيها شيماء وبسمة في تدبير الخطط لعلاء، ماذا سيفعلون به؟ وفي الشر تكثر الأفكار، كأنه نبع لا ينفد، اقترحت شيماء فكرة الطلبات الكثيرة، ومنها الهدايا، الفسح، ولذلك كانت البداية بهاتف غالِ الثمن والذي طلبته منه فأحضره علاء لها، بدأت تحدثه عن نفسها وعن أحلامها التي تطيب لها في أنها تريد أن تعيش في شقة على النيل وأنها تحلم بأن تسافر إلى تلك الجنة معه ولكن علاء انزعج من كثرة هذه الطلبات الغير منتهية ولأنه كان متدينًا رفض طلبها الأخير الذي تفاجأ به، وهي أنها تريد الذهاب إلى الغردقة، فعقد علاء حاجبيه قائلًا:

انتِ لسَّا خطيبتي.. يعنى لسَّا ما بقيتيش على عصمتي، إزاى أروح بيكِ الغردقة؟!

وقتها انتبهت لغضبه ولعاداته والتقاليد التي تحكمهم ولخوفها إذا وصل الخبر إلى والدها فكيف سيكون الأمر؟، لذا جاء دور بسمة بأن نصحتها بأن تتراجع خطوتين للخلف حتى لا ينكشف الأمر فالهدف هو أن يتركها دون أن يعرف أحد أنها السبب، لذلك عادت رنا تتدلل وتتأسف لعلاء بأنها أرادت أن تختبره.

أحس علاء بأن هناك شيء تخفيه عنه ولكنه لم يستعلم عن الأمر ولذلك ترك هذا الهاجس للوقت فهو كفيل بمعرفة كل الأمور الخفية.

حاولت رنا الاتصال بحبيبها الذي أغلق هاتفه بعدما عرف خبر خِطبتِها ولكنها لم تستلم فذهبت إليه في محل عمله في محل الهدى للهواتف، وقفت تسأله عن حاله ولماذا لا يجيب على الهاتف، تعلل بأشياء كثيرة ولكن في نهاية المحادثة طلب منها بألا تأتي إليه ثانية، تفاجأت بأسلوبه الحاد فحاولت أن تتدلل عليه ولكنه صمت برهة

وبعدها أجابها بانفعال قائلًا: انتِ خلاص اتخطبتِ، لو سمحتِ أنا مش عاوز مشاكل.

اختتم حديثه بتلك النبرة لتخرج رنا وقد خطت دمعتان على وجنتيها وهي في غاية الأسى والألم، أحست بوخزة اخترقت قلبها لتعلن عن قلق يطبق ويسيطر عليها متسائلة: ما كل هذا القلق الذي بداخلي؟ لا أحد يرد عليها سوى صوتها الذي يلزمها بأن ترجع لبيتها، ركبت القطار عائدة إلى أسوان، ولتهدئ قلبها الذي اشتعل من فراق حبيبها ولكنها قررت في قرارة نفسها أنه الخاسر في معركة العشق هذه؛ لذا عادت وعاد علاء ليملأ قلبها لأنه زوج المستقبل، ولكن كيف تنسى هذه الصفعة؟، وهل مُحِيَ من قلبه هذا الحب الذي سهرت من أجله ليلًا طويلًا؟ تهمس وعيناها تتبع تلك الأشجار الممتدة على طول الطريق، تثبت نظرها على البيت المبني بالطوب اللبن، حاولت أن تجتازه لتعيش على النيل، دائمًا كانت تحلم بهذه الشقة التي تطل على النيل وكأنها تسمع أصوات الأفراح التي تجيء من سطح النيل حيث المراكب تحمل العرائس وتطوف بهم فيفرح النيل بهم فيعكس صورهم على صفحتيه فتملؤهم

الفرحة والسرور، تنطلق الزغاريد من قلب النيل تلمس قلبها، تستشعر بذلك الدفء الذي يريح نفسها بعض الشيء.

ولكنها تستيقظ من أحلامها مع اقتراب السلاسل الجبلية، لترجع إلى الواقع الذي تعيش فيه، إنها ابنة الجبل، نعم وستظل ابنة الجبل حتى إن علاء سيأخذها معه إلى حضن الجبل، لن ترى أمامها سوى هذا الجبل الشامخ، لن ترى النهر مرة أخرى، هكذا هي الحياة لا تعطيك كل ما تتمناه، يقترب من أذنها صوت شيماء وبسمة في نصيحة واحدة وهما يردادن ليلًا نهارًا تمسكي بعلاء وانسي ذلك المخادع.

تصمت وتترك العنان لعقلها لتستبدل صورة علاء به، وتحاول أن تنشط الصفات الحميدة الموجودة في شخص علاء فتهدأ، يقترب موعد الزفاف وتزداد اضطرابًا، هل ما زال الجبل جاثمًا على صدرها؟ هل عينها أصبحت تبحث عن الجمال فلا تجده فسئمت الجمال؟ ولكن الحب يأتي بعد الزواج، هكذا توصيها أمها.. تنصت لكلامها ولكنها ليست مقتنعة، يشعر علاء بثقله على قلبها، يسألها إن كانت لا تحبه فسيعفيها من كل شيء تاركًا لها تلك الأشياء المتمثلة في الذهب والهدايا، يخبرها بأنها

هدية لها فالحب المجروح لا يعيش، تجيء كل النصائح في ذهنها، والدها، والدتها، أخواتها، الكل أبدى إعجابه بعلاء.

وبدأ هو يكبر في نظرها بكرم أخلاقه، ولتتم الزيجة في عرس مبهر ليذهب بها لحضن الجبل الذي كانت تمقته لتجده جنة مع حبيب يحترمها ويقدرها، نعم إنها الحياة، تتعب لترى الاختلافات حتى ترضى.

(10)

دخل النمر من الباب وهو يهرول وقد امتلكه الفزع والرعب، يتصبب عرقًا ليتساءل حسين الكردي: ما بك يا نمر؟!

لم يكن يعرف النمر أن القدر سيسوق له (السلاموني). ولكن من السلاموني هذا؟! سأل حسين الكردي بعدما نطق النمر الاسم وهو يلهث منكبًّا على يديه وعينيه على الأرض، جلس بجانبه حسين الكردي واضعًا يده على كتفه قائلًا: يا نمر، مين دا اللي اسمه السلاموني؟!

نظر النمر إليه بعينين ذائغتين وظل شاردًا والصمت يغلفه وكأنه يعدو في جميع البقاع وهو ثابت في مكانه، ماذا يقول له؟ أيقول له أنه من عائلة حمدان؟ أيحكي له ماذا حدث مع والده بعدما أنزل الله عقابه عليه حرقًا؟ وأنهم اتخذوا عقاب الحرق حتى يكون قصاصًا لهم بأن ذهبوا في عتمة الليل إلى بيته حيث كانت والدته تغط في النوم ثم أحرقوا بيته ومن ثم شعرت والدته بأن الدخان يقتحمها فأخذت تسعل وتصرخ لكي ينجدها أحد ولكن دون جدوى؟ هل يحكي له كيف اقتص لوالدته؟.

هل يحكي له أنه بعدما أخبره صديقه بأن عليه الهروب ذهب يترنح بين الحقول يصعد ويهبط، يرفع رأسه إلى حسين الكردي في نظرة مخيفة، يهزه حسين وهو يقول له: ما لك؟

كل هذا يدور بخلده وهو ما زال ثابتًا في مكانه وعشرات الأسئلة تنهش عقله ثم قرر أخيرًا أن يبوح له فبدأ يخبره بالسر الذي حفظه في صدره دون أن يخبر أحدًا على أن يكتم حسين الكردي هذا السر وليقسم له بأغلظ الأيمان ألا يخبر أحدًا،

ما كل هذا الخوف الذي يختبئ خلفه؟ تدور في نفس حسين أسئلة كثيرة، تتطاير إلى عقله الكوابيس التي كانت تؤرق النمر والتي اختفت منه في الأيام الأخيرة بعدما أصبح من رواد المساجد فسأله حسين قائلًا: هل هو الثأر يا نمر؟

يعقد حاجبيه متطلعًا إلى المكان ليشيح برأسه نحو حسين قائلًا: نعم، إنه الثأر الذي حلمت كثيرًا أن يُمحى..

يحاول أن يهدئ حسين من روعه فيحضر له كوبًا من الماء طالبًا منه أن يحكي له، يزيح إلى فمه النمر ذلك الماء الذي تدحرج بداخله وعينه

ثابتة على حسين، يهدأ قليلًا، حيث عادت الذكريات تراوده بعدما كان يترنح في الحقول سقط على الأرض بين عيدان الذرة القائمة التي غطته وهو هامد على الأرض ليستيقظ على أثر أشعة الشمس التي أحرقت وجهه، يتلفت يمينًا ويسارًا، يشبُ بجسده وهو ينهض على مهل بتثاقل غير مصدق ما حدث له، يطل برأسه خارج عيدان الذرة حيث الجداول تسري فيها المياه وتسير روحه فيها إلى تلك البلدة التي أخذت والدته، فما ذنبها أن الله أنزل بوالده عقابًا؟ فما ذنب والدته التي تجلس كل يوم تنتظره لتعنفه عما ترتكب يداه من إثم؟، هل لأنها لم تطلب الطلاق؟، أم لأنه مضى على خطى والده؟. تحتدم الأفكار في رأسه، يتطلع إلى الحقول المجاورة، لا يرى أحدًا، يشرب الماء ويغتسل من تلك القاذورات التي ملأت جسده ونفسه معًا ولكن امتلكته عزيمة الثأر لوالدته؛ فعائلة حمدان هي من حرضت القرية على أن تشعل فتيل النيران، إذن لن يجدوا أحدًا ليطفئ لهيبها، يردد هامسًا.. فهذا الانتقام الذي اشتعل في قلب النمر حمله على أن يقتص لوالدته ولنفسه ولكنه انتظر بين عيدان الذرة حتى يختبئ من تلك العيون إلى أن يحل الظلام، ففي هذا السواد تعمى

العيون والقلوب، وعندما أسدل الليل ثوبه فوق المكان خرج النمر وهو ملثم الوجه، وفي الأفق ظهرت البيوت وهي متراصة بجانب بعضها البعض، تلوح الإضاءة خفيفة مترنحة مع هبوب الرياح وكأنها تجسد هذا الغضب الذي يسيطر على النمر. صرير النوافذ والأبواب يعلو شيئًا فشيئًا. الخوف يزداد عنده من نهيق الحمار وصراخ البقرة التي يدوي صوتها في المكان وكأنها تشعر بهذا الخوف الذي تسلل إليه!، ولكن الغضب ملأ قلبه فجعله يقاوم هذا الخوف الذي بدأ يتلاشى شيئًا فشيئًا ليعلن عن شيء محتوم سيحدث. لا ينتبه له أحد بعد تسلله من زريبة البيت الخلفية والشرر يتطاير من عينيه ولكن ظل الحاج فرج حمدان بدأ يلوح له من فتحة باب البيت وهو يستعد للذهاب ليؤذن لصلاة الفجر.

يتسلل النمر في خفية وصورة والدته أمامه، تشتد الرياح في عويلها، صرخات والدته ما زالت تضج في أذنيه، يمسك بالفأس وهو ما زال يتابع هذا الظل، ما بال هذه الليلة يغطيها سواد كثيف؟ يهمس فرج وهو يجفف يديه من القطرات التي تتعلق بيده، يزم شفتيه تارة ويجز على أسنانه تارة أخرى، يعلو صوت الثور القابع في الحظيرة ليتبعها صراخ

البقرة والنهيق الذي لم يتوقف. يستطلع الخبر الشيخ فرج حمدان ليعرف ماذا يحدث في الحظيرة؟ يتقدم على مهل وما زال النمر مختبئًا يفرح بقدومه وهو يقول: جيت لموتك يا فرج..

تهيج البهائم، يقف فرج بينهم يستوضح وهو يهمس قائلًا: ماذا يحدث.. لماذا تهيج البهائم؟!

يأتيه الصوت خلف البهائم قائلًا: ألا تعرف؟؛ لأن موعد موتك قد حان.

صرخ النمر وولى هاربًا على إثرضربته دون أن يعرف النمر أنها سقطت على الثور الذي خر على الأرض، مصطدمًا بفرج فأطلق صرخته وأضاءت الأنوار لتفقد تلك الصرخة أثرها فيجدون الشيخ فرج حمدان وقد انطوى في زاوية بجانب الجدار ليهرول ابنه السلاموني ليطمئن عليه مستطلعًا ماذا حدث له، يدس فرج الأحداث عنه ليخبره بأن الثور اصطدم بحاجز الحديد المثبت على الجدار مع خوفه من تلك الرياح فاصطدم به.

ولكن لماذا أخفى؟، هل لندمه الشديد على تحريض القرية لقتل (أم النمر)؟، والذي أوقد النار في قلوب الناس فقاموا بإشعال النيران في البيت بليلة سوداء، ورغم مرور سنوات على تلك الحادثة ما زال صراخ المرأة يقتله يوميًّا، باحثًا عن النمر كثيرًا نعم ولكن حتى يسامحه في الليل والنهار، يدعو الله أن يغفر له، ومما أتعبه أكثر اختفاء النمر دون أثر، حتى إنه وصى أهل القرية إذا سمعوا خبرًا عنه يخبروه حتى يذهب له بنفسه ويستسمحه ولكن دون جدوى.. كل هذا والنمر يعتقد أنه قتل الشيخ فرج، كم ظل طويلًا يصرخ خوفًا من ظل فرج الذي تمثل له كثيرًا وهو يقول له: لماذا قتلتني يا نمر؟ سأقتلك..

ظل النمر يعاني دون أن يعرف أن الشيخ فرج حي يرزق، ترك قريته مهاجرًا إلى السعودية ليختبئ من ظل الشيخ فرج الذي ظل يلاحقه منذُ فراره من القرية حتى لاحقه في منامه بل وأيضًا في غربته التي كان يخشى أن يقابل فيها أحدًا من أقارب الشيخ فرج.. كثيرًا ما بكى في منامه من هذا الشخص الماثل أمامه الذي جاء وثوبه الأبيض قد غرق بالدماء كأنه شعلة نار، حاملًا الفأس الذي استخدمه النمر وهو يهجم عليه قائلًا:

سأقتلك.. سأقتلك، ليقوم مفزوعًا من ذلك الحلم لتراوده تلك الذكريات المؤلمة ولكن الحلم الذي يطارده أصبح حقيقة بعدما ظهر السلاموني ولكن كيف ظهر؟ وهل جاء لينتقم لوالده؟، كل هذا دار بخلده عندما شاهده النمر خلسة في عمله وبعدها تأكد أنه هو.

ولكنه شاهد السلاموني بشخصه هذه المرة ماثلًا أمامه، بل وصله صوته وهو يقول متعجبًا وهو يحملق فيه: من هذا؟.. النمر!

يتملكه الرعب ويسيطر عليه ليولي فرارًا دون أن ينظر إلى الوراء. يحاول أن يوقفه السلاموني حتى يوضح له ما حدث ولكن النمر جرى مبتعدًا.

ينادي عليه رافعًا صوته: يا نمر، استنى.

لا يزيد هذا الصوت إلا هربًا من ثأر كم خُيِّل له، ولذلك عندما دفع الباب، كان يهرب من ماضٍ اعتقد أنه لن يطأ تلك الأرض، أو ربما خشي هذا اليوم، نعم إنه اليوم الذي انتظره والذي خاف منه كثيرًا، يحاول حسين أن يمسح بمنديله هذا العرق الذي تصبب مرة أخرى على

جبينه وعيناه ذائغتان يحاول أن يُهدئ من روعه وهو يقول له: كل هذا تخبئه يا نمر بداخلك! ولكن أين هذا الرجل؟

يرد النمر وهو مازال مضطربًا: لا أعرف.. كل ما أعرفه أني تركته في موقع العمل..

عندما شاهد السلاموني النمر، هرول خلفه، ولكنه لم يلحق به لذا عاد أدراجه إلى العمل حتى يسأل العامل الذي كان مع النمر، والذي احتار بدوره من رد فعل النمر عندما شاهده يجري، عاد إليه متسائلًا: ألا تعرف مكان النمر؟ أطرق العامل برأسه فطلب السلاموني منه بأن يعطيه له، وبعدما أخذ العنوان أسرع إلى الشارع حتى يوقف سيارة فأشار لها فتوقفت، صعد ولديه أمل أن يلحق بالنمر قبل أن يفر مرة أخرى.

طرقات على باب البيت، يتكور النمر على نفسه وعيناه تتابعان الباب، ينهض حسين الكردي لكي يفتح الباب ولكن النمر يشد يديه طالبًا في همس أن يجلس ولا يرد لعله قد يكون السلاموني.. قالها وهو يرتجف من الخوف وتدور أفكاره عن الثأر ولكن حسين هدأ من روعه

ونهض بتثاقل لكي يفتح الباب وهو يتلفت إلى النمر الذي تصبب عرقًا وعيناه تثبتت على الباب الذي أطل منه رأس السلاموني وهو يشب برأسه باحثًا عن النمر، جحظت عيناهما وهما يدققان النظر إلى بعضهما ليقطع هذا الصمت حسين الكردي وهو يسأل هذا الرجل الذي تجمد مكانه وهو يحملق بالداخل قائلًا: ماذا تريد؟.

حركة وأصوات ارتطام خلفه ينظر للخلف ليشاهد النمر وهو يقفز على البراميل البلاستيكية ليصطدم بنرجيلته دافعًا بالكراسي أمامه، تلاحق يداه الجدار. يقبض حسين الكردي على هذا الرجل الذي حاول أن يقتحم المكان ليلحق بالنمر.

فيوقفه حسين وقد فهم أنه السلاموني الذي يريد أن يثأر لوالده فأوقفه بالقوة مما جعل الناس تلتف حولهما بعدما اشتد الشجار ودفعه حسين للشارع مما زاد من الأعداد الملتفة حولهما ليمنعوهما عن بعضهما، وليستفهموا عن سبب المشكلة التي دارت بينهما ولينعقد لسانهما، لا أحد ينطق..

فحسين لا يريد أن يخبر أحدًا أنه السلاموني حتى لا تتصاعد المشكلة، لذا بعد وقت ليس بطويل وأسئلة متلاحقة من الناس عن سبب الخلاف الذي دار بينهما فينطق حسين قائلًا: الأخ دا جه يخبط ع الباب ولما سألته عايز إيه زقني وحاول يقتحم المكان.

تجهم الناس واحمرت وجوههم منتظرين الإجابة من السلاموني الذي اضطرب ليفرج عما يحمله بصدره وهو يحكي لهم قصته مع النمر مبينًا لهم أن والده أوصاه قبل أن يموت أن يبحث عن النمر ويحضره للبلدة لعل الله يغفر له فيتساءل حسين الكردي قائلًا: ألا تعرف أن النمر خائف منك ويعتقد أنك جئت لتقتص منه؟!.

رحب حسين بالسلاموني بعدما عرف حقيقة الأمر ليستضيفه مقدمًا له كوبًا من الشاي وحتى يحل هذه المشكلة، التي عاش فيها النمر يصارع الحياة والحياة تصارعه لذا اتصل بالسيد عبد العال حتى يشاركه فيما حدث، لم يمضِ وقت طويل حتى حضر أفراد البيت جميعًا على أثر تلك المشكلة التي حدثت، فقد انتشر خبر النمر بعدما عرف الناس الحكاية،

وبدأت الألسنة تنشرها بالتهاتف بالجوالات مرة، ومرة بالجلوس في الشارع لينقلوا خبر الثأر ليهرول أفراد البيت الكبير ليستوضحوا الخبر.

وعندما اجتمع الكل بدأ السلاموني يحكي ما حدث للنمر مع والده وعندما أنهى الرجل الحديث تكلم السيد عبد العال وهو يشير بأصبعه لأفراد البيت: لا بد أن نبحث عن النمر ونفهمه بأنه لايوجد ثأر.

خرج الكل بحثًا عن النمر بعد معاناة من البحث وجدوه عند أحد أصدقائه، شرحوا لهُ ما حدث، لم يصدق أذنيه وذهب معهم بعدما تلاشى الخوف منه ليقابل الرجل الذي خاف منه كثيرًا.

وقف السلاموني بهدوء ليصافح النمر لأول مرة والابتسامة تعلو محياه، ولتذرف دمعة من حسين الكردي وهو ينظر إليهما لتدور بخلده تلك الأسئلة التي يحاول يومًا أن يمحوها من ذاكرته وأن يذهب هذا اللقب الذي لحق به، ويلاحق أبناؤه من بعده ولكنه فرح للنمر لأنه انتهى من عذاب أحلامه.

بعدما شهد السيد عبد العال ما حدث للنمر ولقائه بالسلاموني رجعت ذاكرته تراوده بأبنائه الذين أطال عليهم في تلك الغربة التي

سرقت عمره زيفًا دون أن يحقق شيئًا، لذلك طلب من كفيله أن يفك هذا الحبل الملفوف حول عنقه والذي طال عقده طالبًا منه أن يسرحه من الغربة التي سيطرت عليه ليغادر جدة وسط وداع من الجميع له.

❊ ❊ ❊

سؤال "أبو راشد" ما زال يطن في أذني وهو يقول لي: هل ما زلت تريد رفيدة؟ كان سؤالًا مباغتًا لم أقدر أن أجيب سوى أنني أخبرته قائلًا: أنا.....

تمت

❊ ❊ ❊

سيرة ذاتية

الاسم بالكامل: كامل عبد الجواد أحمد رزق.

الشهرة: كامل رزق.

من مواليد مركز الوقف – محافظة قنا – جمهورية مصر العربية.

صدر له مجموعة قصصية بعنوان (متاهة في بطن الشاحنة) من النادي الأدبي بجدة

❋ ❋ ❋

للتواصل

Kamelrezk555@yahoo.com

تليفون **01023089808**